فخري عصفور البرغوثي

عميد الأسرى في الصحافة والأثير

أمضى ثلاثة وثلاثين عاماً في المعتقل..

التقى شادي وهادي في الأسر وسجل الأب وولداه

ملحمة بطولة نادرة في تاريخ النضال الإنساني

الرائد الأول عميد الأسرى، هذا هو اللقب الذي عُرف به المناضل فخري البرغوثي ورفيقه نائل البرغوثي وهو ابن عمه الذي سجن في نفس اليوم، حيث أمضى الرفيقان ثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة أشهر في الأسر. وكانا بذلك أقدم أسيرين في معتقلات الاحتلال الإسرائيلي.

ويعتبر فخري أنموذجاً إنسانياً فريداً لملحمة الصمود والتحدي، حيث واجه الظلم والقهر والتعذيب من قبل السجان الإسرائيلي.

لقد استطاع فخري البرغوثي أن يصمد أمام جبروت الطغاة السجانين، بإرادة صلبة وعزيمة قوية تثبت أن سلاح الإرادة أقوى من سلاح القهر.

عرفت فخري البرغوثي مناصلاً صلباً، شجاعاً، بطلاً، صاحب مواقف رائعة دفعتني إلى أن أقتفي عطر بطولة هذا المناضل، من خلال التقارير التي كنت أعدها بحكم عملي الصحافي، ومن ثم نقوم بإرسالها إلى مختلف الصحف والإذاعات، والى مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وخاصة إلى الأخ أبو جهاد والأخ نمر حماد. كما كنا نرسل هذه التقارير إلى إذاعة صوت فلسطين في القاهرة، والتي كان على رأسها الأخ الطيب عبد الرحيم. وفي الواقع فإن هذه التقارير كانت تشتمل على مادة إعلامية، وتوثيقية للنضال الفلسطيني ولإيقاع الثورة الفلسطينية، وبذلك نعكس هذا الإيقاع النضالي لنقدمه إلى شعبنا كأنموذج وقدوة. وكان مصدر هذه التقارير المحامية فيلتسيا لانغر، والمحامي حنا نقارة، والأستاذ وليد الفاهوم، وزياد العسلي، وغيرهم من المحامين الأحرار المتعاطفين مع الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة.

الأبطال يشعلون الثورات

ومن المفيد أن أذكر أن توجيهات الأخ أبو جهاد ونمر حماد كانت تدعوني إلى أن أجعل الأولوية في كل مادة صحفية لأخبار هؤلاء المناضلين، بحيث تكون في الصفحات الأولى وأن تحتل مكانة مناسبة في جميع

المنابر والمفردات الإعلامية التي كنت أغذيها بالأخبار، والتقارير عندما كنا نعمل في المكتب الفلسطيني في القدس.

ومن الأصدقاء الإعلاميين الذين كانوا يتبنون هذا الاتجاه الأخ شوكت المسمى بمجدي روما، لأن هذه المادة الصحافية الهامة كانت تعكس روح الثورة الفلسطينية، وكانت بطولات ومواقف فخري البرغوثي المميزة تأخذ مكانها في النشر في شتى المفردات الصحافية كما كانت مادة خصبة هامة تذاع من صوت فلسطين في القاهرة التي كان مديرها الطيب عبد الرحيم، ومن ثم الإعلامي ربحي عوض، وسفيرنا في الأردن الأخ عطا الخيري.

إن بطولات فخري جديرة بأن تروى، وأن تكون زاداً للثوار وقدوة لكل من حمل السلاح دفاعاً عن فلسطين وثورتها، ورغبة في تقديم النماذج التي تكون حافزاً للشباب وقدوة لجميع أفراد الأمة.

على دفتر الشمس

المكان: سجن عسقلان

الزمان: 2004/7/19.

كانوا ثلاثة..

الوالد فخري البرغوثي، خمسون سنة، وابنه البكر شادي، سبع وعشرون سنة، وابنه الثاني هادي، ست وعشرون سنة.. كانت لحظات عصيبة نادرة.. كأن الكون كله وقف يرقب هذا الأب الصابر المناضل وهو يلتقي ولديه شادي، وهادي.. في معتقل عسقلان.. في مشهد لا تستطيع الكلمات أن تصوره أو تستنطق ما فيه من الانفعالات والشجن والألم والفرحة والدمعة.. واللهفة واللوعة والابتسامة والحسرة.

لحظات شجن إنساني نبيل نادر.. حيث يلتقي الأب وأبناه في بحر من الانفعالات والدموع وسط أكثر من مائة وخمسين إنساناً.. بكوا جميعاً.. بصورة جماعية.. تفتت كبد الصخر.. من لوعتها وحرقتها.. طوفان عاصف من الدموع.. وحالة شجن وألم ولوعة.. ممزوجة بالكبرياء والنشوة والفخر.. الأب يحضن ولديه.. وقد اختلطت الدموع.. وامتزجت الأنفاس وتلاحمت الأجساد،، وخفقت القلوب.. على وجيب البطولة.. والإيمان بالوطن.. وبالمبدأ.. والإحساس بنشوة البطولة والفخر والسمو.

إن مثل هذه اللحظات.. قد لا تتكرر في التاريخ المعاصر.. لا في الواقع ولا حتى في الخيال.. عندما.. يلتقي الأب بابنيه على مبدأ ورسالة.. وفي ساحة الشرف والفداء..

يقول أبو شادي وهو يغالب قطرات من الدموع طافت بمقلتيه.. لا أستطيع أن أستحضر تلك اللحظات المشحونة بالانفعال والشجن واللوعة والفرحة والألم والأمل والعطف والحزن والدموع والبهجة.. ها هم أولادي بين أحضاني.. وها نحن وسط طوفان من الدموع.. كل زملائي ورفاقي المائة والخمسين.. بكوا بحرقة وصدق وهم يرون شادي وهادي بين ذراعيّ.

أيها القدر العنيد..

كم أنت رحيم.. وكم أنت ودود.. وكم أنت نبيل.. إذ جمعتني بأحب الناس إليّ.. في لحظة تاريخية نبيلة في سجن.. الحرية والشرف و الفداء.

أبو شادي مبكراً يغرد داخل السرب

ولدت يوم 1954/3/2 في قرية كوبر إحدى مدن محافظة رام الله وأمضيت في المعتقل ثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة شهور.. وما بين لحظة الميلاد، ولحظة الحرية.. حياة حافلة لا أقول إني فيها كنت بطلاً وعميداً ومغواراً.. ولكني أستطيع أن أقول إن إيماني بالمبدأ، وحرصي على أن أكون جندياً مخلصاً لقضية بلادي جعلني أعبر كل هذه السنوات بقلب صامد، وروح وثابة، وضمير مستريح.. ومشاعر وأعصاب وتواصل.. وصداقة وصحبة.. جعلت الحياة في نظري.. هدفاً ورسالة.. وصبراً وثباتاً.. وانتصاراً.. وانتظاراً ليوم خلاص قريب.. وفجر لا بد أن يطل.. وإن طال الزمن.

منذ سنوات الصبا وأنا أودي واجباتي الوطنية، بشجاعة وصبر وثبات، مستهينا بالموت، متوقعاً في كل لحظة.. أن أكون سطراً.. أو كلمة انتصار تضاف إلى سجل الشهداء والخالدين.

لم أغرد يوماً خارج السرب، ولا كنت فئوياً لحظة.. ولم تكن صداقاتي وعلاقاتي داخل السجن وخارجه قائمة على الانتماء الفصائلي.. وإنما كانت قائمة دائماً على الانتماء الإنساني والسلوك القويم والشخصية السوية الغنية الخصبة المعطاءة التي تفيض مودة وطهارة وشجاعة وبطولة.

"أبي من أسرة المحراث
لا من سادة نُجبِ"

كان والدي يعمل فلاحاً في الأرض، فقد كنا نملك حوالي عشرة دونمات من الأرض الزراعية الخصبة، وكان والدي يزرعها زيتوناً وقمحاً وشعيراً وفولاً. أما والدتي.. فكانت فلاحة بسيطة.. لا تجيد القراءة والكتابة.. فالتعليم في تلك المرحلة لم يكن معروفاً لدى المرأة.. ولكنها ورثت صبر وحكمة وثقافة الفلاحة الفلسطينية المكافحة تقف إلى والدي جنباً إلى جنب- في الحقل تحرث وتدرس وتجمع.. وتغربل.. وتعمل وتعرق.. لتجسد روح الانتماء والعطاء.

وكان أبي يغرس فينا القيم الأخلاقية العربية الأصيلة.. كان من مدرسة ذلك الجيل القديم الذي يؤمن بالصرامة والقوة والحزم.. وكان يعرف بخبرته وتجاربه.. أن الرجولة والقوة والصلابة تنبت في ظل حكمة وحزم ورعاية الأب لأولاده.

أبو شادي.. خُلق الحزم أبكما

عندما تتأمل أبو شادي وهو يتحدث بهدوء وبلغة بسيطة، وبمصداقية عفوية.. لا تلمح في أسلوبه.. رنة فخر أو إعجاب.. ولا تقرأ في ملامح وجهه.. ولا في حركات يديه أو شفتيه ظلال تيه أو ازدهار.. العفوية والبساطة، والصدق.. والشفافية وحدها تنبؤك عن نوع من المناضلين.. أخذ الحياة على أنها رحلة عناء وتعب.. ومشوار أمانة ورسالة وأن العذاب فيها قدر، وأن السجن فيها مكتوب.. وأن الألم والقهر والعذاب والدموع.. مفردات تقابلها في كل مرحلة من مراحل العمر.

مثل هذه الشخصيات القدرية العفوية.. الصلبة.. الخصبة.. المتواضعة.. النبيلة.. تهز وجداني.. وتؤثر في أعماقي.. فالعرب ظاهرة صوتية.. منذ عهد عمرو بن كلثوم.. حتى عصر نزار قباني.. مروراً بالمتنبي.. وقلماً، نجد الصادق والصموت.. الحكيم الذي شرب من كأس الشجن والعذاب حتى الثمالة.

جاع.. وتشرد.. وتعذب.. واكتوى بالنار.. هو وأحباؤه، ومع ذلك.. ظل يؤمن .. بأن الوطن في حاجة إلى من يعمل ويعطي.. لا من يقول ويتقول.. الوطن في حاجة إلى رصاصة وبندقية، وليس في حاجة إلى منبر وقصيدة.

مؤبد وسبعة عشر عاماً ومشوار الأسر

في فجر يوم 1978/12/27م

كانت الساعة الثالثة والنصف صباحاً عندما سمعت دقات قوية على الباب، خيل إليّ أن والدي هو الذي يدق على الباب.. مع أني كنت على ثقة من أنه غير معتاد أن يأتي لزيارتنا أنا وزوجتي في مثل هذا الوقت المتأخر.

قلت لزوجتي.. إنهم اليهود..

دخلوا.. كان ابني شادي عمره أحد عشر شهراً.. حاولوا أن ينثروه.. وهو في فراشه لولا أن أمه بادرت واحتضنته، ثم كانت فترة التحقيق.. استمرت شهرين..

شهران من العذاب والضرب والشبح ومحاولة إزهاق الأنفاس في الماء.. شهران.. كل لحظة فيهما.. بسنوات من الإذلال والجوع والعذاب.. إنهم لا يريدون منك المعلومات فقط.. فهم غالباً يعرفون عنك كل شيء.. ولكنهم يريدون أن يكسروك.. يريدون تحطيمك.. وتحويلك إلى شظايا.. فاقداً للروح والقوة والصلابة.. مجرد من الإرادة.. عارياً من أي قيمة من قيم الإنسانية والرجولة والإباء..

في سجن السبع في غرفة مع ثمانين أسيراً

أول سجن دخلته سجن السبع.. وكان رفاقي أصدقاء العمر المناضلون: عمر البرغوثي، ونائل البرغوثي، ومهند الحاج.

كنا أربعة أصدقاء جمعت بيننا أواصر صداقة واحدة تفوق صلات الدم والأخوة.. وهؤلاء الرفاق هونوا عليّ المصاب.. وحولوا أيام الاعتقال والسجن.. إلى رفقة مليئة بالمودة والتواصل والحب والإخلاص.

ربطت بيننا قضية الوطن والمبدأ.. وقسوة الجلاد، وظلمة السجن برباط لا تنفصم عراه.. وقد أفرج عن عمر البرغوثي ومهند الحاج عام 1985.. أما أنا فبقيت حتى الإفراج الأخير عام 2011م.

إيقاع الحياة منتظم رغم ظلام السجن

يقول أبو شادي: عدد الأسرى المعتقلين أكثر من "550" معتقلاً، من مختلف التنظيمات والفصائل، وفي الغرفة الواحدة كان يقيم ثمانون شخصاً.. ولم يكن في سجن السبع في تلك الفترة من أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات راديو ولا مسجل ولا تلفزيون ولا صحف.

ومع ذلك كان إيقاع الحياة يسوده النظام والهدوء.. فلا مجال للفوضى والصخب أو الضجيج أو الجدل.. وسبب ذلك أن الأسرى كلهم يتبعون لفصائل نضالية لها برامجها وأهدافها وأنظمتها.. كانوا جنوداً في ساحة المعركة.. والتزموا بقواعد الجندية التي يمثلها النظام والانضباط والطاعة.

وبصوت ملؤه الثقة يقول أبو شادي:

إن مجتمع الأسرى المناضلين داخل السجون والمعتقلات أكثر انضباطاً وسلاسة ونظافة من المجتمع خارج السجن.. فالإيمان بالمبدأ، والتضحية والشجاعة، وقوة الإيمان ووضوح الرؤية والرؤى تخلق الفرد الواعي الكبير المسكون بحب الوطن.. الملتزم بالمسؤولية.. فلا تهريج ولا زعرنة، ولا خروج عن القانون.. كأن أفراد الغرفة الثمانين.. أبناء أسرة واحدة.. أو كأنهم.. صورة حيّة عمليّة للمدينة الفاضلة التي صورها أفلاطون.

لكل فصيل برامجه، وأهدافه، وقادته في داخل المعتقل، وجميع هذه الفصائل تعرف كيف تحترم الوحدة الوطنية، وتعرف كيف تطبق برامج النضال الوطني.. برحابة صدر وعمق واحترام الآخر.. وفي حرية كاملة للرأي.. والرأي الآخر.

يوم في حياة الأسير

في الساعة السابعة صباحاً.. يبدأ اليوم بالألعاب الرياضية قرابة ساعة ونصف، ثم يتجه الأسرى كلٌ إلى غرفته لتناول طعام الإفطار، ومن ثم ينطلق الجميع إلى المكتبة التي تشتمل على أكثر من ألف كتاب.. فيستغرقون في القراءة في جو من الهدوء التام.

في الساعة الحادية عشرة.. يمارس الأسير وقته حراً.. للاستحمام وقضاء شؤونه الخاصة.. فإذا كانت الساعة الواحدة خرج الجميع إلى "الفورة" وهي نزهة تستغرق ساعة ونصف في فضاء لا يزيد عن 14م x 18م ، فإذا كانت الساعة الثانية والنصف، عاد الجميع إلى غرفهم حتى صباح اليوم التالي.

إن حياة الأسر.. حياة قاسية.. مليئة بالأسى والعذاب، والألم والحرمان وخاصة عندما يحرم الإنسان من أسرته، وأهله، وتشل قدراته، ويفقد أثمن ما في الوجود.. وهو الحرية.. والعمل.. ومع ذلك فإن ما يخفف وقع هذه الأيام السوداء؛ هو الإيمان بالمبدأ، وحب الوطن، والتضحية، والفداء، والقدوة، وتلك الشعلة التي تخفق جذوتها في صدر كل مناضل، بفضل القراءة والوعي والتثقيف، والتأمل.. وتعلم فن الحياة.. وأهمية أن تكون على قدر من الثقافة والوعي، وأن تؤمن بما يقوله أحمد شوقي:

"وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا"

وقوله:

"قف دون رأيك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد"

أو بما يقوله شاعرنا إبراهيم طوقان:

"وأسلك بهمتك السبيل ولا تقل كيف السبيل

ما ضل ذو أمل سعى يوما ومقصده نبيل"

من السبع إلى جنيد

في عام 1984.. تم نقلنا من سجن السبع إلى سجن جنيد في نابلس، وذلك بهدف تجميع أسرى الضفة الغربية في مكان قريب تخفيفاً على الأهل.

كان عدد الأسرى في كل غرفة في سجن جنيد تسعين شخصاً، وهناك غرف كثيرة، يقيم في بعضها ثمانية أو تسعة أسرى وقد يصل العدد إلى اثني عشر شخصاً وربما أربعة عشر شخصاً.

كانت ظروف ومعطيات سجن جنيد بالغة القسوة والعنف، ما دفعنا إلى تنظيم إضراب استغرق اثني عشر يوماً، وانتهى بتحقيق معظم مطالبنا من حيث:

- الراديو
- الملابس
- فتح طاقة في كل باب.. وغيرها.

كم من أخ لك لم تلده أمك

هناك وجه آخر للحياة في الأسر.. هناك نوع من الأخوة والصداقة والرفقة، تخلقها ظروف الأسر، وظلمة السجن، وقهر السجان.. هناك يتنامى تواصل بديع.. وتواصل إنساني وعقلاني وعاطفي نادر مع رفقة وشباب، أضاءت تجربة السجن كل ما فيهم من مشاعر نبيلة ورؤى مشرقة. صهرتهم تجربة السجن فكانوا كالتبر الذي أزيلت عنه بقايا الوحل والتراب والأنانية والفردية؛ فغدا معدنهم صافياً، نقياً، رائعاً بأنبل ما في الإنسان من صفات الحق، والخير، والإيثار، والفروسية.

التقيت في السجن بـ

- نائل البرغوثي
- وعثمان داود
- وياسر هدى

فوجدت فيهم أسرة، وإخوة، وحباً وتواصلا، ورحمة وإنسانية.. ولا عجب في ذلك، فهؤلاء عشت معهم أكثر مما عشت مع أسرتي وأهلي، أمضيت معهم سنوات وسنوات، تنامت خلالها بيننا أغصان شجرة الصداقة، لتضرب جذورها في أعماق نفوسنا.

وما أروع الالتقاء على مبدأ وطني، ورسالة سامية، وهدف نبيل، ما أجمل تلك اللمسات الإنسانية التي تفيض نبلاً وشجناً وإنسانية.. تتغلغل داخل النفس فتصقلها، وتنبذ كل ما فيها من أدران المادة والأنانية والفردية.

لقد خسرت حريتي طوال ثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة أشهر، ولكني اكتسبت صداقة هؤلاء الرفاق.. فلم أخسر كثيراً بل إني أشعر بأني الرابح بصحبة هؤلاء الأبرار.

أكذوبة العلاج

ويقول أبو شادي:

لا تصدقوا "أسطوانة" الإنسانية التي تنطلق في بعض الأبواق الإعلامية، عن إنسانية السلطات الإسرائيلية. إن إسرائيل غير معنية بعلاج أي معتقل، إلا في حالة واحدة، عندما يصل المعتقل المريض إلى حافة الموت المحتم، أما في الحالات المرضية الأخرى، فهي غير معنية.

بل إن ما يهمها.. أن يكون المعتقل إنساناً محطم الإرادة، ضعيف البنية، مسكوناً بالأمراض والعلل، وذلك كله لأجل السيطرة عليه وإضعافه وتجريده من سلاح الإرادة والمقاومة.

والإضرابات سلاح فعّال كان يمكن أن يهز أركان إمبراطورية السجون، ولكن شريطة أن يكون مدعوماً، بجبهة داخلية قوية، وثورة إعلامية عربية عالمية، وهذه المعطيات كثيراً ما تكون مغيبة أو ضعيفة، وأسوأ ما في الأمر، أن يتحول إضراب الأسرى إلى مجرد خبر تقليدي مكرر.

إن الأسير المضرب يغامر بحياته، وروحه من أجل هدف، وحق مقدس وهو معاملته كإنسان.

وأمام هذا التحدي الخطير جدير بنا جميعاً أن نكون في خندق واحد مع هؤلاء الأبطال، الذين لا يبالون بالأسر، ولكنهم يثورون لكرامتهم الإنسانية حتى الموت.

جراح تتجدد في كل شهر

تسمح سلطات السجن بزيارة لمدة نصف ساعة للأسير، وتشمل هذه الزيارة خمسة أفراد، ثلاثة من الكبار، واثنين من الصغار، وتتم من خلف الأسلاك الشائكة.

فأي عذاب

وأي ألم

وأي جراح

وأي مأساة تتجدد كل شهر لمدة نصف ساعة.

عندما تكون بينك وبين من تحبهم، كل هذه الحواجز ماذا تقول وماذا تسمع وكيف تتصرف وكيف تستطيع أن توقف هذا الطوفان الجارف من المشاعر والحنان، والشوق واللوعة الذي يسري منك نحو أمك وأبنائك وإخوتك وشريكة حياتك.. أو كيف توقف هذا الطوفان الجارف الذي ينطلق من مشاعرهم وتتلقاه في صدرك ووجدانك وسويداء قلبك؟

إن قوانين مصلحة السجون الإسرائيلية تتفنن في تعذيبنا.. وتعرف كيف تلهب مشاعرنا، وتوجه النار فيما حولنا لتسلمنا إلى حالة من العذاب والألم، وتفتح جراحنا وتضغط علينا بكل قوة على مواطن الألم في قلوبنا ومشاعرنا.. فكيف لأي إنسان أن يتحمل رؤية ابنه أو زوجته أو أمه وهي أمامه.. ولكنها أبعد عنه من نجوم السماء..؟

إن سجناء الحرية أبطال رجال أصحاب مواقف وأصحاب ثقافة ورؤى، وليس من الحضارة والإنسانية التعامل معهم كمجرمين.

هذا هو منطق العدل والإنسانية..

ولكن لإسرائيل دائماً منطق آخر في التعامل مع العرب، ومع الفلسطينيين بصفة خاصة.

ألم يقل يوماً موشيه دايان: "إن العربي الجيد هو العربي الميت".

فجر الحرية قادم وشمسها ستشرق يوماً

لقد غابت عني شمس الحرية ثلاثة وثلاثين عاماً وربع، ولكني كنت في انتظارها، كنت واثقاً أنها ستشرق يوماً عليّ وأنا في ربوع كوبر.. لم أيأس لحظة من رحمة الله ولم أكفر بحتمية انتصار الحق، كنت دائماً متفائلاً، صابراً، حليماً، صموتاً، متأملاً.. أرصد مواقع النصر وأتأمل قوافل الشعوب.. وأسجل في ذاكرتي

ووجداني كل انتصار يحققه أبناء شعبي.. وأقرأ وأتأمل وأفكر.. إن زوال الباطل قدر حتمي.. وإن كلمة الحق هي التي تعلو دائماً.

وما أجمل ما يقوله الحكماء من:

إنك تستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت

وتستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت

ولكن لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت

وما صراع الإخوة الأسرى وإضرابهم البطولي إلا كلمة حق.. وموقف حق.. ومطلب حق.. ولكن الانتصار في المعارك لا بد له من ثمن.

وغداً.. سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (صدق الله العظيم).

كوبر مهد البطولة

أخي فخري..

لقد كنت أكثر حرية من جلاديك في سجنك، وأن السلاسل والأقفال والفولاذ والحديد التي كانت تكبل أياديك لم تستطع أن تكسر إرادتك، وكانت عاجزة ضعيفة أمام شجاعتك ورباطة جأشك.

ويا أم الأبطال، يا أم شادي ويا رفيقة درب فخري.. إن صبرك على المصاب الذي لحق بك وانتزع زوجك أولاً ثم انتزع ابنيك شادي وهادي كل ذلك يشكل ملحمة من الألم، استطعتِ أن تكوني صابرة متماسكة، وقادرة على أن تقودي دفة سفينة هذه الأسرة لتصلي بها إلى بر الأمان.

لا تبكي يا أم الأبطال، ويا زوجة البطل لأنك بصبرك حافظتِ على العائلة واستطعت أن تجعلي من أبناء فخري رجالاً مناضلين ساروا على دربه في النضال والبطولة. فأنتِ أنموذج لكل نساء العالم.

لكِ الحب والتقدير ولكِ المجد ولتتفتح أزهار الربيع في روضتك على تلال كوبر التي أنجبت هؤلاء الأبطال، التي أنجبتِ فخري، وأنجبت نائل وشادي وبشير رحمه الله.

كما أن كوبر أنجبت المناضل القائد حبيبنا مروان البرغوثي، كما أنجبت مريد البرغوثي الشاعر العظيم وحسين البرغوثي الناقد والشاعر الملهم رحمه الله.

هذه كوبر، رمز الحرية، ومنبع البطولة والشعر والأدب، وينبوع الفداء، القرية الصغيرة التي أنجبت فخري ليملأ صفحات التاريخ الفلسطيني المعاصر لتتغنى به جميع الأجيال.

(2012/5/4)

قدورة عبد العزيز موسى

المحارب الذي واجه الموت وسعى إلى حتفه من أجل موقف
أحب جنين وأكد مجدداً أن طعنة العدو تدمي الظهر
ولكن طعنة الصديق تدمي القلب والظهر معاً
فارس آخر يترجل من فرسان ذلك الزمن الجميل

يا الهي، صعقت بالخبر، قدورة موسى استشهد! كيف؟ ولماذا؟

قدورة موسى محافظ جنين عرفته منذ ثلاثين عاماً.

كنت أيها الصديق البطل تعرف أن هذه الطريق هي طريق الشوك والآلام.

لقد تأكدت من ذلك عبر تاريخك النضالي ودخولك السجن مرة بعد أخرى حتى بلغت سنوات اعتقالك اثنتي عشرة سنة. وما زالت الذكريات التي تركتها في نفسي تهزني في كل لحظة فيخيل إلي أنني لا زلت أسمع ضحكاتك المجلجلة وتعليقاتك المرحة وعباراتك اللاذعة تتردد صداها في أنحاء المكتب الفلسطيني كلما جئت إلينا تحمل التقارير والأخبار والأسرار بصبر وحلم وتواصل مستمر.

لقد تعلمت من حياة السجن الكبرياء والتحدي، كما أن جميع العاملين في مجلة "العودة" والمكتب الفلسطيني كانوا يجدون فيك رفيقاً مناضلاً، مشاركا في الحركة الوطنية وفي الخط الأمامي منها.. وكانت حكاياتك عن السجن والسجناء لا تنتهي وكانت قصص البطولة التي كنت شاهداً عليها وشريكاً فيها تستأثر باهتمام الزملاء وتثير فيهم الحاسة الصحافية التي تغذي المجلة بالأفكار والأخبار والحكايات الصحافية.

عندما يأتي قدورة خارجاً من السجن

عندما يأتي قدورة خارجاً من السجن كان المكتب الفلسطيني ومجلة العودة التي كان هو مدير مكتبها في جنين كانت تصبح هرج ومرج، وحيوية يأتينا بها من السجن، وحياة فيها كبرياء، وتحدٍّ، كان الزملاء يقبلون عليه، يقبّلونه، ويسألونه عن الرفاق الذين تركهم وراء القضبان، ليرجع إليهم ثانية كل بضعة أشهر. كان فرحنا عظيماً بخروج قدورة وقبل أن يجلس حولنا ليحكي لنا قصص السجناء وقصص البطولة التي كنا

متشوقين لسماعها، يطلب الأخ إبراهيم قراعين الحمص والفول من عند جارنا أبو حسن، أحسن مطعم للفول والحمص في القدس ويبدأ قدورة موسى الراوي قصص شهرزاد في أداء رائع يحبس أنفاسنا، وكان زميلنا باسم أبو سمية يستمع إلى قدورة موسى ويملأ الصفحات المؤثرة عن معاناة المساجين السياسيين والأمنيين وكنا نرسلها حسب اتفاقنا السري مع أبو جهاد ونمر حماد ممثل منظمة التحرير في روما، كنا نرسل هذه المواد الإخبارية للمقاومة عن طريق مكاتب فتحها أبو جهاد، إلى روما مكتب مجدي روما، وقبرص مكتب أبو صلاح، الذي أصبح مدير شرطة رام الله والبيرة عند مجيء السلطة، وفي باريس مكتب أبو ربيع الحسيني الذي بعثه أبو جهاد ليفتح مكتباً ليأخذ أخبارنا في الأرض المحتلة.

سيف الرقيب على كل قلم وعبر كل خبر

هذه الصفحات التي كان يمنعنا الرقيب العسكري الإسرائيلي من نشرها ويمنع زميلنا إلياس الزنانيري الذي كان يرأس تحرير مجلة العودة بالانجليزية يمنعه من كتابة حرف عن التعذيب والممارسات، كذلك زميلنا رضوان أبو عياش الذي كان يرأس تحرير مجلة العودة باللغة العربية كان يمنع من نشر أي كلمة عن التعذيب ووضع السجناء. الرقيب العسكري كان يسلط سيفه على رقابنا، يمنع كل تلك التقارير. التقارير التي كان يحضرها باسم أبو سمية من كل مراسلينا في الضفة الغربية وقطاع غزة كانت ترسل إلى بيروت إلى القائد أبو جهاد. من خلال هذه المكاتب التي هي كانت سرية، أذكر يومها أعطانا قدورة تقريراً فريداً عن إضراب السجون والتعذيب ووضع السجناء وقد عملت المنظمة على تعميم هذا التقرير في جميع أنحاء العالم وخاصة في دول عدم الانحياز والكتلة الاشتراكية. هز هذا التقرير كل الأوساط السياسية ووصل إلى كل المحافل الدولية بفضل شجاعته وجرأته لنقل لنا الصورة لأول مرة من وراء القضبان، الأمر الذي أدى إلى إعادة القبض عليه وإرساله إلى السجن مرة جديدة.

وأكثر من ذلك فإن "الكولونيل" الرقيب الإسرائيلي قام باستدعائي أنا والزميل إبراهيم قراعين وحمّلنا المسؤولية كاملة عن تسريب أخبار السجون للصحافة العالمية وخاصة "النيويورك تايمز" و "لندن تايمز" التي كتبت عن التعذيب أول تقارير لها في المجال.

شذا البطولة في سيرة مناضل حقيقي

أخي قدورة..

لقد رحلت وتركت لنا إرثاً وتاريخاً نضاليا للأجيال لكي تحتدي به، تركت في هذه الأرض حبك، وذكراك، وعطرك، ونار جنين تمشي مع الريح، النار التي أشعلتها قبل ثلاثين عاماً. يا أيها الفارس النبيل، من خلال نضالك ومبادئك، كنت من الأوائل الذين حملوا الراية، والشعلة، كنت شعلة من الجمر تملأ الدنيا بثورتك وأفكارك، كنت لا تنحني، وتقول لنا ضاحكاً بابتسامتك الطفولية، عندما تخرج من السجن، ومن العذاب في كل السجون التي أصبحت بيتك، السنابل لا تنحني، كلمة لا أنساها أبداً كانت دائماً من أهم أقوالك، كنت شقياً بثورة وطفولة، وشقوتك كانت محببة، وكان الرفاق في السجون يرددون قصص بطولتك وعبقريتك بالتعامل والتحايل على السجان. كنت قائداً في السجون، برغماتي، ليبرالي، وغير متشنج وحزبي ومنفتح لكل التنظيمات، وكرئيس لإقليم فتح، كان قلبك منفتح للتعامل مع أبناء شعبك، كنت دائماً

مستقيماً، وتفتح بيتك للمنكوبين بعد مجزرة جنين وتفتح بيتك وقلبك للمساجين وقضيتهم بعد أن قضيت عمرك سجيناً.

شجاعة القائد .. التحدي والمواجهة

أيها الزميل الرفيق

إن شعبك كان وفيا لك. لقد خرجت جنين عن بكرة أبيها لتوديعك الوداع الأخير، لأنك كنت دائماً تحمل راية الحرية وتمضي على طريق الشوك والألم. وما استشهادك إلا دليل قاطع على شجاعتك فأنت لم تمت موت الجبناء. لقد حملت سلاحك وخرجت من بيتك بحثاً عن الذين حاولوا قتلك.

تحديت الموت وخرجت من أجل إقرار العدالة والقانون والتصدي لهؤلاء الذين يريدون أخذ القانون بأيديهم.. وكان ذلك درساً رائعاً لمن يريد أن يعتبر ويفهم أن القانون الذي نعيش في ظله ليس قانون الغاب.

لقد زرعت المحبة والأمل والشجاعة في قلوب الجيل الصاعد، وزرعت شجرة من شجرات برتقال جنين التي ستنمو وتمتد أغصانها وتعطي عطراً وأريجا.

مدرسة السيف والقلم .. مزيد فريد

من مدرسة السيف والقلم

قدورة عبد العزيز موسى

حمل البندقية والقلم.. وانبرى بشجاعة وفروسية وجرأة ليلحق بقافلة المناضلين.. الذين جمعوا بين شجاعة القلب.. وشجاعة العقل.

"إن الشجاعة في القلوب كثيرة ورأيت شجعان العقول قليلاً"

قدورة موسى..

مناضل من فئة نادرة عطرت تاريخ الثورة الفلسطينية.. وسجلت صفحات عز وفخر، ونشرت أريج البطولة النادرة التي جاءت مزيجاً من الشجاعة والإقدام.. والحكمة والأدب والبلاغة.

يعيد أبو موسى إلى أذهاننا بسيرته ومواقفه، والطريقة التي استشهد بها، سيرة صفوة المناضلين من رجال فلسطين.

إنه واحد من تلك الكوكبة العظيمة، التي تضم غسان كنفاني، وصلاح خلف، وعبد الرحيم محمود، ووائل زعيتر، وماجد أبو شرار، وناجي العلي. هذه الصفوة النادرة من المناضلين الأبطال.. الذين حلقوا في سماء الفن والكلمة والقافية.. كما حلقوا في ساحات المعارك والموت والرصاص والنار والدم.

عن البندقية والقلم .. بين الرصاصة والكلمة

كان قدورة موسى صحافياً.. كان مراسلاً صحافياً شاباً نشطاً.. يعمل في جريدة الفجر اليومية ويعمل في المكتب الفلسطيني ومجلة العودة.. وكنت أعرفه وهو لا يزال شاباً غضاً.. في ربيع عمره.. وكنت أقرأ على سيماء محياه مشاعر الغضب والثورة والألم.. عندما يقوم بتغطية إعلامية لكل حادثة أو موقعة.

كنت أقرأ في أعماقه ثورة حقيقية.. وأشعر شعوراً قوياً بأن هذا الإنسان الثائر.. قد ضل طريقه إلى عالم الصحافة.. وأنه يخوض صراعاً مع نفسه ومبادئه.. لأنه لا يريد أن يقاتل بالكلمة والخبر والصورة.. إنه يريد أن يجمع بين القصيدة والقنبلة.. بين جرأة المقاتل ورومانسية الشاعر.. بين الرصاصة والكلمة.. بين ساحة المعركة.. وخشبة المسرح.

قلب شاعر وطموحات ثائر

وقد عملنا معاً.. طوال سنوات وسنوات.. وكان أبو موسى.. قادراً دائماً على أن يجمع بين البندقية والقلم.. وكانت مواقفه دائماً تضج بالتحدي والرجولة والفروسية.. وهذه أبرز سمة من سماته.

المواجهة، والجرأة، والتحدي، لا يخاف ولا يتوارى ولا يلجأ إلى ألاعيب اللغة.. إن طريق الثورة واضحة، وإن مبادئ الحق معروفة.. لم يكن قدورة يخاف من الاحتلال.. ولا من الخارجين عن القانون ولم يكن يرهب التهديد.. ولا التعريض.. كانت شجاعته تؤكد أن قلبه قُد من صخر.. وأنه لا يرهب الموت حتى لو كان يطارده.. في كل ليلة أو يوم من أيام عمره التي شارفت على الستين.

وما استشهاده بهذه الطريقة الدرامية العنيفة إلا دليل ساطع قوي.. على أنه كان يحمل روحه على كفه.. ماضياً في رسالته، شجاعاً جريئاً.. لقد حمل قلبه على كفه على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز.. ومن هنا لفظ أنفاسه الأخيرة.

الرجل المناسب في المكان المناسب

إن مدينة جنين.. سجل قومي ناصع مشرف في تاريخ الثورات في العالم.. كأنها ستالينجراد.. أو كأنها عكا.. أو كأنها بور سعيد، أو كأنها سايجون.. قلعة من قلاع الحرية والبطولة والتحدي.

جنين القسام.. التي قاتلت جحافل القوى الصهيونية.. وأنجبت أبطالاً مثل زكارنة وقدورة وغيرهم.. هذه المدينة الباسلة ينحني لها التاريخ إجلالاً واحتراماً.

كثر فيها الثوار، وكثر فيها الأبطال.. وكثر فيها الشهداء.. واحتاجت إلى رجل قوي نزيه جريء.. لا يستطيع أحد أن يزود عليه لتترك البندقية وتمسك بالفأس.. لتزرع وتعمل وتنتج في مرحلة تاريخية معقدة.. قد لا يكون فارسها صاحب السيف.. وإنما رجل العمل والبناء.

بشجاعته، وصدقه، ونبله.. نشر الأمن والسلام والهدوء والنظام في جنين.. فكان ذلك كله أعظم ما في مسيرته، شجاعته وإخماده لصوت الفتنة وتصديه للخارجين عن صوت العقل والإجماع.

شريط حياة قدورة .. حياة مشقات

ولد قدورة عبد العزيز موسى بتاريخ 1952/2/25 في قرية مركة جنوب جنين، شمال الضفة الغربية.

بدأ حياته النضالية متنقلاً بين السجون.. وذلك في سنوات السبعينيات، والثمانينيات، فقضى ما مجموعه اثني عشر عاماً في سجون الاحتلال. وكان من الذكاء والدهاء بحيث أسس العديد من المكاتب الإعلامية، والصحافية والحركية التابعة لحركة فتح، فكانت قواعد لانطلاق العمل النضالي التنظيمي في تلك الفترة. وعندما جاءت السلطة لعب قدورة موسى دوراً قيادياً.. لما يتمتع به من مصداقية وجدية.. فغدت جنين مدينة محررة.. ينسجم إيقاع الحياة فيها مع أهداف الحركة الوطنية بتوجيه ورعاية من الزعيم ياسر عرفات الذي كان يثق بقدورة، ويعرف مدى جديته وجرأته.

وهذه الثقة أولاها له الرئيس أبو مازن، الذي يعرف عنه الحكمة والتعقل والنزاهة.. وهو البصير بنوعية الرجال.. فعينه في مركز شديد الحساسية.. محافظاً لجنين وكان ذلك عام 2004، وقد ارتبط اسم قدورة موسى في السنوات الأخيرة بمشروع دولي أمني هو "أنموذج جنين الأمني" وهو أنموذج يقوم على تحويل جنين من "عش الدبابير" باعتبارها قاعدة للأعمال الوطنية المسلحة، ومنطلقاً جريئاً للعمل المسلح خلال انتفاضة الأقصى.. إلى مدينة للتعايش والسلام.

معادلة خطيرة .. على حافة الهاوية

وهذه في الحقيقة معادلة خطيرة صعبة ومعقدة.. فالمناضلون الشرفاء.. لا يثقون بالساسة والألاعيب الإسرائيلية.. وهم لا يطمئنون إلا إذا كانت بنادقهم تحت مخداتهم.. ولكن المرحلة.. فرضت عليهم الاستماع إلى سياسة دع مائة وردة تتفتح.. فاستجابوا.. وهم يرددون.. في صراحة.. وإن عدتم عدنا.

كانت جنين مثالاً فذاً.. يثبت التكافؤ بين المقاومة والعدو رغم فرق التسليح والإمكانات، والعدد والعدة.. لأن المقاومة.. كانت تستمد قوتها من شجاعة رجالها وإرادتهم ومعرفتهم بخفايا ومسارب جنين، وتلك قدرة تفوق كل معطيات العدو.

وهكذا زهت جنين.. ولبست ثوباً من الخضرة والهدوء بعد أن سجلت أروع الملاحم في معركة الاجتياح وجندلت أكثر من ثلاثين جندياً.. في مواجهات نادرة.. جعلت فرسان الأيديولوجية العسكرية في حالة ذهول وحيرة.. وتخبط.

جنين القوية الصامدة.. الصلبة.. البطلة.. تستجيب.. لإدارة وتخطيط وحكمة قدورة موسى.. إنها المهرة القوية العصية.. ولكنه الفارس الشجاع الجريء.

اكتملت المعادلة..

والمشوار طويل.. والوصول إلى الدولة.. والحرية.. في حاجة إلى جنود مثل قدورة.. وقادة مثل محمود عباس.. أقول ذلك بصدق وشفافية وأجري على الله.

لقد تحقق ذلك الأنموذج الأمني بفضل قيادة قدورة موسى، وإيمانه بهذا النهج، إنه يسعى إلى سعادة شعبه، وتحرير بلاده وركوب موجة التطرف والراديكالية لن يؤدي إلا إلى بحر من الدماء.. حاول قدورة موسى الذي كان يتمتع بعلاقات قوية مع شريكه في هذا المشروع رئيس مجلس مستوطنات جلبوع "داني عطار" والذي ينتمي إلى معسكر السلام الإسرائيلي حاول أن يحقق خطوة ولو صغيرة نحو القدس.. وصولاً إلى حرية فلسطين.. فمضى في طريق الشوك والألم وأصغى إلى منطق معتدل والى حوار بناء ولغة إنسانية متعقلة كان يسمعها من رئيس حزب العمل عمير متسناع. وغيره من معسكر اليسار الذي لم يتنكر للحقوق الفلسطينية.

التصدي للعاصفة .. بثبات وجرأة

وقد جلب انخراط قدورة موسى في هذا الأنموذج، وتصدره له، سمعة دولية كبيرة، لدى كبار الشخصيات الأوروبية والأمريكية.. ولكنه جلب له انتقادات واسعة من قبل القائمين على حملات مقاومة

التطبيع، والتنسيق الأمني مع الإسرائيليين، الذين رأوا في تلك التوجهات جزءاً من خطط السلام الاقتصادي الذي يتم الترويج له.

ومع ذلك فإن العقلاء من المفكرين والمثقفين في الثورة الفلسطينية، أتاحوا لقدورة أن يعمل وأن يجرب، فنحن نحاول ونجرب طوال ستين عاماً.. فماذا نخسر إذا كنا نسعى إلى حقنا ولا نفرط في الثوابت الوطنية المعروفة.

السياسة فن الممكن، وليس هناك عداء دائم ولا صداقة دائمة. هناك مصلحة دائمة..

لقد أدى ارتباط قدورة موسى بتطبيق هذا الأنموذج إلى ثباته في موقعه، رغم تغيير جميع محافظي المدن الفلسطينية.. فقد ارتبط وجوده بمعادلة وطنية قومية قائمة على توازنات دولية معينة مرتبطة بالمشروع السياسي والأمني، ولذلك كان المحافظ الوحيد الذي لم يتغير.

ذات يوم سأل أحد الصحافيين ياسر عرفات:

- لماذا "تفاوض" يا سيادة الرئيس..؟ إن منتقديك يعيبون عليك تراجعك.. ألم تقل إن الطريق إلى فلسطين يمر من فوهة البندقية؟

فرد الرئيس على الفور:

- وهل ألزمهم بنهجي وسياستي.. هل منعتهم من القتال؟ هل منعت أحداً من الحرب..؟

وسكت الصحافي.. ولم يعلق بكلمة واحدة..

وهذا هو موقف قدورة موسى.. حارب ودخل السجون اثني عشر عاماً.. حمل السلاح وقاتل ببسالة طوال عشرين عاماً، وهو يسير الآن في طريق رأى فيه بصيص أمل.. ولكنه لا يمنع أحداً من أن يقاتل..

إنه تلميذ في مدرسة ياسر عرفات.. يعرف متى يقاتل، ومتى يفاوض، وعينه دائماً على القدس.

من شب على شيء شاب عليه

وفي معرض ذكرياته عن الشهيد قدورة موسى يقول سمير أبو زيد: في عام 1967 في اليوم الثاني لعدوان الخامس من حزيران، خرجنا إلى الجبال المطلة على مدينة جنين، وبينما كنا في أعالي الجبال حضر نفر من المواطنين، وكان بينهم قدورة موسى. كان شاباً صغيراً لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ولكنه اندفع إلى تقديم العون والمساعدة للأطفال الذين افتقدوا الحليب والماء والغذاء. لقد غامرنا سوياً في دخول المدينة التي كانت تشتعل بنيران معارك ضارية تجري في طرف البلد على مثلث الشهداء.

وبعد أربعين سنة، عام 2000، حاولت إسرائيل مصادرة آلاف الدونمات بمحافظة جنين في أم الريحان، وعانين، وبعض القرى المجاورة داخل الخط الأخضر، وهبَّ قدورة موسى ليقود فعاليات ونشاطات يومية للتصدي لهذا العدوان وتلك الهجمة الاستيطانية التي كان يباركها الرئيس عرفات وأوكل إلى قدورة هذه المهمة في محافظة جنين أكثر من المحافظات الشمالية حساسية.

نموت مرة واحدة .. ولا نهرب

وأثناء تشييع عدد من الشهداء الذين استشهدوا بصواريخ الأباتشي في المقبرة الغربية بجنين، كان أبو موسى يلقي كلمة في الحشود المتراصة، ومن ثم حلقت طائرة الأباتشي فوق المقبرة فصرخ أبو موسى:

- ابقوا في أماكنكم، فالموت مرة واحدة أشرف لنا جميعاً.. لن نترك شهداءنا خوفاً من طائراتهم.

أبو موسى صورة من قريب

يقول الرئيس أبو مازن: إن موسى كان مثالاً في الإخلاص، والانتماء، والوفاء في كافة المواقع التي تبوأها، وعلى مدار سنوات نضاله الطويلة دفاعاً عن قضية شعبنا فقد كان من أوائل الذين هبوا للدفاع عن فلسطين أرضا وقضية ومقدسات.

ويقول عنه المحامي غسان الشكعة: كان قدورة موسى أحد الرموز الوطنية المشهود لها، رحل بعد حياة زاخرة بالنضال والانتماء الصادق لقضية شعبه الوطنية العادلة.

ويقول ياسر زهير مخاطباً الفقيد:

أنت الفارس الذي بقي على صهوة جواده، يقاتل على مختلف الجبهات حتى الرمق الأخير. كنت مع سيادة القانون لتجعل من جنين أنموذجاً وعنواناً لقدرة الشعب الفلسطيني على الإنجاز.

وقال محمد بركة: أحببنا الصديق القائد أبو موسى الذي كرس حياته لمحافظة جنين، التي سطرت بأحرف من ذهب سطور البطولة أيام الاجتياح الإجرامي لمخيم جنين. لقد كان له دور مركزي في تعزيز التواصل بين أبناء الشعب الفلسطيني الواحد الذين ينتمون الى تضاريس الوطن مع اختلاف تضاريس السياسة. كان حريصا على التواصل بين طرفي الخط الأخضر حتى يتصل الوريد بالوريد، والشريان بالشريان والإنسان بالإنسان ليشكلوا سوية خريطة الوطن.

أخي قدورة..

عرفت على امتداد حياتي الإعلامية نماذج مختلفة من المناضلين.. وكنت دائماً أتوخى الصدق والبطولة في أولئك الذين تتوهج مواهبهم بالعطاء الفني والإبداعي، وفي نفس الوقت لديهم من الشجاعة والجرأة والإقدام ما يجعلهم يتقدمون الصفوف حاملين أرواحهم على أكفهم وأقلامهم على أكتافهم وبنادقهم بين أحضانهم..

كنت أخي قدورة.. فارساً فهم قواعد اللعبة السياسية والإعلامية بذكائك.. وخبرتك.. ووعيك لحقيقة ما يحيط بالوطن من مؤامرات ودسائس.. فقد أدركت أن الصحافة ليست هدفاً وأن الإعلام ليس هو الغاية.. وأن النضال الحقيقي يكمن وراء كل هذه الألوان من الخطاب السياسي.

وكنت يا أبا موسى.. جندياً.. وقائداً.. ومحارباً.. في الخندق الأمامي للدفاع عن قضايا وطنك.. وكانت الصحافة والمكتب الفلسطيني بالقدس.. العنوان والواجهة والمنطلق.. فأدركت خفايا وجوهر المؤسسات الصحافية وفي طليعتها مكتب القدس، ومجلة العودة.. أدركت أن هذه المؤسسات تناضل في مجال الإعلام.. من أجل هدف أبعد وأعمق وأهم من أي سبق صحافي أو إعلامي.

لقد أدركت قواعد اللعبة وتفوقت وأبدعت..

وكنت عندي أثيراً ومفضلاً ومقدماً لأن المكتب الفلسطيني.. عرف بنضاله الإعلامي الجاد.. الذي يكون قدر كل من عمل فيه الاعتقال.. والقائمة طويلة..

رضوان أبو عياش

إسماعيل عجوة

نعيم الطوباسي
إبراهيم سجدية
المتوكه كله
على الصح
محمد عميرة
حمدي فراج
سليمان منصور
زهير الدبعي

هذه النخبة من الإعلاميين، كانت عيونهم دائماً على الجبهة النضالية- المبدئية- كانوا جنوداً في ساحة المعركة يختفون وراء القلم والميكرفون والأثير والصحيفة.. وهم يتحركون في نطاق الإعلام وتحت جناحي صاحبة الجلالة.. لكن هدفهم كان دائماً النضال الوطني.. والكفاح البطولي الشجاع دفاعا عن الحق وانتصارا لمبادئ الثورة.

كنت واحداً من هؤلاء الفرسان.. الذين أدركوا حقيقة الدور الذي يقوم به مكتب القدس للخدمات الصحفية.. كان بمثابة وزارتين في آن واحد.. وزارة للإعلام ووزارة للخارجية.

ولا أقول إنني كنت المايسترو والقائد الذي ينفذ ويقود وينسق مع "أبو جهاد" ولكني أقول.. إن الثورة الفلسطينية، ومنظمة التحرير.. كانت حركة ثورية قوية تضج بالبطولة والشفافية والالتزام.. وإنها كانت تعرف أن الإعلام وسيلة فاعلة لبناء القواعد وتأسيس الجبهات.. وتنفيذ مخططات القيادة.. لتأجيج لهيب الثورة من جهة.. ولتغذية شعلتها الوضاءة في الإعلام العالمي.. وبناء علاقات.. تفاهم وتنسيق.. تقرب الثورة من أهدافها.

كنت أخي قدورة.. من أهم العناصر وأجرأها وأكثرها ذكاء في العمل المخلص على هذين الصعيدين المتكاملين.. العمل الإعلامي المعلن والعمل النضالي الخفي.. وقد نجحت في أن تستقطب الكثيرين- وأن تؤسس العديد من المكاتب الصحافية.. وقطعت أشواطاً مهمة في الإعلام.. ولكن حضورك الثوري.. والنضالي.. كان يضعك في المقدمة.. فنلت ثقة أبو عمار.. وأصبحت قائداً فتحاويا مميزاً، جمع بين القلم والبندقية.

بحكمة وذكاء وإصرار وعناد.. ولا عجب أن تكون محافظاً لجنين القسام مهد الثورة والثائرين.. وما استشهادك إلا نهاية درامية لبطل حقيقي.. لم يكن يهاب الموت في سبيل المبدأ.

(2012/5/11)

كامل جبيل

رفرف ملاك الموت حوله في زنازين الخليل
واختطف رفيقه المقدسي مصطفى عكاوي
وبرفقته.. تصدينا معاً لعنصرية كهانا يوم اقتحم بلدية رام الله

كامل جبيل كان شخصية فريدة، تتفجر بالحيوية والنشاط والشباب.. ارتبط في ذهني بنخبة من الشباب المناضل الذين كانوا يقومون بنشاطات وطنية فاعلة، وكان كامل لا يكاد يخرج من السجن إلا ليدخله ثانية.

كان يتردد على بيتنا صباح كل يوم، حيث نتبادل الحوار والخطط، ونحن نحتسي قهوة الصباح، ونتصفح الجرائد ونحاول أن نرقب حركة الإيقاع السياسي والنضالي من خلال ما بين السطور.

وكان ينضم إلينا عدد من الزملاء منهم: رضوان أبو عياش، وباسم أبو سمية، وأبو خالد البطراوي، وكان يشارك في هذه الجلسات الصباح زوجي داود الطويل الذي كان يكنّ حباً صادقاً لكامل، وكانت بينهما مودة حقيقية وتواصل وجداني.

بين شباب رام الله وشباب يافا

وكان زوجي يقول لهم بحماس وإخلاص وبكلمات معطرة بشذى الذكريات: إنكم تعيدون إلي ذكريات يافا وشباب يافا الباسل وإني أشعر بفرح غريب بينكم .

وكان داود الطويل بطبعه ميالاً إلى المرح، فكان يمازح الشباب، ويتبادل معهم الطرائف والتعليقات، وأخبار المدينة وصباح الخير يا كريم، وصباح الخير يا إبراهيم الطويل. المدينتان تعجان بالنشاط والحركة، والسيارات المنطلقة في كل اتجاه، تحمل المواطنين إلى أعمالهم. ووسط هذا الإيقاع الحيوي، تأتي جحافل الجيش الإسرائيلي وسيارات حرس الحدود تتجول في المدينة وترقب باستفزاز شديد الطلاب، وهم يتجهون إلى مدارسهم.

وكثيراً ما تتطور الأمور فيشتبك الطلاب والشباب مع الجيش في مواجهات دموية، تجري بصورة تكاد تكون يومية، وعلى أثر ذلك يتصل بنا كريم خلف ويطلب منا المجيء فوراً لأنه كان على وعي تام بأهمية الأعلام، وضرورة تغطية هذه الأحداث أولاً بأول.

كريم خلف شريك حقيقي في عملنا الإعلامي

وإني أثمن غالياً مواقف الراحل كريم خلف الذي كان شريكاً لنا في كل الأعمال الصحافية الهامة، التي تحدث في محافظة رام الله، وكنا نقوم بتغطيتها بصورة فورية ونوزع أخبار الاعتقالات وقرارات نسف البيوت والاعتقالات على الصحف الأجنبية والإسرائيلية، ومكاتب منظمة التحرير في بيروت وأوروبا والقاهرة لكي تكون شاهداً موثقاً على ممارسات الجيش الإسرائيلي.

وللحقيقة فإن كامل جبيل كان واحداً من أنشط العناصر على هذا الصعيد، وأستطيع أن أقول إنه كان جندياً مجهولاً وراء عشرات بل مئات الأخبار والحكايات الصحافية المتصلة بالنضال والثورة الفلسطينية التي تلتقطها الصحافة الأجنبية والإسرائيلية.

كامل كتيبة من الإعلاميين في رجل فرد

كان كامل يتنقل في شوارع المدينة وأحيائها بخفة وحيوية وشجاعة، وينطلق من بقعة إلى بقعة، ومن شارع إلى شارع، ومن مخيم إلى مخيم، ومن زقاق إلى زقاق، منطلقاً من مخيم الأمعري إلى مخيم الجلزون وإلى مخيم شعفاط؛ كان يعمل وكأنه كتيبة كاملة من الإعلاميين، وتمتاز أخباره وتقاريره بالمصداقية فهو شاهد عيان يشارك في الأحداث ويرقبها ويعيشها.

وكانت التقارير التي نبثها من خلال مكتبنا تترجم إلى الانجليزية ليلتقطها الصحافيون الأجانب الموجودون في القدس والذين لم يكن أمامهم أي مصدر إعلامي بالنسبة لأخبار الضفة الغربية وغزة إلا الإعلام الإسرائيلي من جهة ومكتبنا في القدس من جهة أخرى.

كانت ثقافة كامل ثقافة إنسان عصامي اعتمد على نفسه، وكان دائماً متواجداً أمام مكتبة الجعبة حيث يواكب جميع الكتب والصحف والمجلات الصادرة حديثاً سواء في الأدب العربي أو الأدب العالمي الثوري، وكنت عندما أزوره في مكتبه أندهش لكثرة الكتب والأقلام الملونة والأوراق المتواجدة في كل مكان، كان يحكي عن فلسطين بحب وانفعال شديدين، وكان ثائراً كله حماس وثورة على الظلم والاحتلال والعبودية.

يا ويحهم نصبوا مناراً من دمٍ

عزيزي كامل..

لقد تركتك شاباً يافعاً، كلك حيوية ونشاط ومرح، وكانت عيناك تتألقان بالفرح، وعندما صادفتك على "الفيس بوك" أبكتني كلماتك، وعذابك ومعاناتك داخل السجن، كيف ومتى حصل كل ذلك، يا إلهي يا كامل ما أروعك! وما أشجعك! لقد أرادوا أن يحطموا الثورة بداخلك.

لقد بكيت وتذكرتك والزملاء الشباب، فلا يجدر بنا أن ننسى أصدقاءنا وزملاءنا القدامى، ولا يجوز لنا ألا نتذكر أيامنا الماضية وضحكتك التي كانت ضحكة طفل، وشبابك وحيويتك التي كانت تملأ حيانا وأيامنا وصباحاتنا.

ماذا فعلوا بك؟ هل يجوز لنا أن ننسى؟ كيف ننساك يا كامل وكيف ننسى كريم خلف، وبشير البرغوثي، وإبراهيم الطويل، وجميل الطريفي، وعادل سمارة، ومحمد البطراوي وغيرهم ممن ساهموا في وضع زهرة في ربوع هذا الوطن؟

عندي رغبة في البكاء. وكلي غضب كيف ولماذا تقتل إسرائيل وتحطم السجناء داخل السجن، ومن يحق له أن يأخذ حياة الآخرين بيديه. العكاوي رحمة الله عليه مات مقتولاً داخل السجن، والقصة التي يخبرنا بها كامل، قصة حقيقية تؤكد أن العكاوي مات شهيداً، ومن هنا يجب أن تكتب هذه القصة وتدون وأن يطلق اسم مصطفى العكاوي ابن عكا على أحد شوارعنا الهامة في رام الله والقدس.

إني أتوجه بالرجاء للأخ الرئيس أبو مازن أن يطلق اسم العكاوي الشهيد على شارع من شوارع رام الله.

أخي كامل..

سدد الله خطاك وأخذ بيدك وحفظك ورعاك، لقد قُهرنا وعُذبنا ونحن نسمع معاناتك أنت والرفاق، ولكن أنتم الأقوياء لأنكم ترفضون أن تصبحوا ضحية للجلاد ولأنكم ترفضون جلد الذات.

لمحات من حياة مناضل صحفي فنان

يتمتع كامل جبيل بشخصية خصبة غنية محببة.. فلا تكاد تلتقي به حتى تجد أواصر مودة وتواصل إنساني وألفه ومودة قد شدتك إليه.. وربطت بينكما برابطة حب وصداقة. هذه الكاريزما.. النادرة.. البديعة.. كثيراً ما صادفتها في شخصيات وطنية وإنسانية محببة.. التواضع.. والحب والمرح.. والألفة.. والإيمان بالإنسان الفلسطيني وبحقه في أرضه ووطنه وحريته.

هذه الصفات الإنسانية.. قد تغيب وراء مظاهر القسوة.. والحسم.. والحزن.. والتجهم.. لدى العديد من القيادات.. وهذه جبلة بشرية معروفة في القادة.. على مستوى الثورات والأشخاص الوطنية أو العالمية، ولكنها كثيراً ما تكون قشرة خارجية تخفي تحتها كل معطيات الإنسانية والنبل.

كان أخي وصديقي وزميلي كامل- يبهرني- بحبه للعمل الصحافي، وبحماسه الشديد للمساهمة في أعمال المقاومة وتثوير الجماهير وحشدها.. وقيادتها في سنوات السبعينيات والثمانينيات. تلك الفترة الخصبة الرائعة الحافلة بالنضال والتصدي لقوى البغي والعدوان.

صدى الذكريات في شارع صلاح الدين

إن أعز ذكرياتي.. وأجمل سنوات عُمري.. مرتبطة بأولئك الشباب الذين كانوا يعملون معي في مكتب القدس للخدمات الصحفية.. وكانوا شعلة من الوطنية والذكاء والعمل المخلص. وقد وصف الزميل نعيم الطوباسي تلك الفترة من النضال قبل اندلاع الانتفاضة الأولى بقوله: لقد كنا ننظم المظاهرات.. ومن ثمّ نقوم بتغطيتها صحفياً وإعلامياً.

وذلك ما قمنا به.. ذات يوم.. أنا وكامل في تظاهرة وطنية لا يمكن أن تنمحي تفاصيلها من ذاكرتي على مر السنين. وأترك المجال لكامل ليروي بنفسه تفاصيل تلك المواجهة. فقد كتب يقول:

ذات يوم من أيام عام 1979، تلقيت اتصالاً هاتفياً من كريم خلف رئيس بلدية رام الله في ذلك الوقت، بطلب حضوري إلى مكتبه في البلدية.. كنت يومها أعمل مراسلاً صحفياً في صحيفة الفجر المقدسية اليومية.. ولدى مقابلتي له، أبلغني بأنه علم من مصادره الخاصة، أن مئير كهانا وهو صهيوني أمريكي متعصب يقود حركة عنصرية تسمى "كاخ" وتدعو إلى طرد الفلسطينيين جاء ليمارس عنجهيته وغطرسته، ويزور البلديات الوطنية لاستفزاز رؤسائها، ومطالبتهم بالرحيل، وكان قد اقتحم نابلس وزار البلدية..

وتصدت له الجماهير الثائرة ولقنته درساً حيث تلقى صفعة على وجهه.. في مواجهة نارية مع جماهير نابلس الغاضبة.

قلت لكريم خلف:

- من الذي سيقابل كهانا؟

فقال كريم بهدوء شديد:

- أنا.. أنا سأقابله وحدي.

قلت لكريم:

- ذلك أمر مستحيل.. كيف يمكن أن نتركك لمقابلة هذه الشخصية المستفزة العصبية الخطرة. لقد تلقى في نابلس صفعة على وجهه، وفي رام الله يجب أن يتلقى ألف صفعة..

وأدرك كريم خلف بذكائه.. أنني متحفز لتحدي كهانا، وأني لا أخشى المواجهة.. فأمر بأن أبقى في البلدية.. بحيث لا أستطيع الخروج. كان كريم يريد أن يحتوي الموقف.. حتى لا يفلت عيار الأمور وتحدث مذبحة.. فتظاهرت بالاقتناع.. واتصلت بريموندا.. وأخبرتها.. بأن كهانا وثلة من الرعاع سيحضرون لاقتحام مكاتب بلدية رام الله. وأني شبه محتجز في البلدية، ولا بد من تلقين هذا العنصري درساً.

مواجهة عاصفة بين الجماهير والعنصري كهانا

ولا زلت أذكر.. كيف ذهبتُ في ذلك اليوم إلى دار البلدية، وقابلت كريم خلف.. الذي وضعني في الصورة.. وطلب مني التعامل مع هذه القضية بحكمة.. ودون تطرف.. وكان يعرف بحكم تجاربه واطلاعه.. أنني كنت لا أتردد في مواجهة هؤلاء المتعصبين.. سواء أكانوا عسكريين أم إعلاميين أم مستوطنين.. وأني كإعلامية يستهويني بشدة.. أن "أشعلها".. ونجحت في إقناع كريم.. بأن الرد على كهانا يجب أن يكون من خلال تجمع جماهيري.. يجب أن يكون ثورة شعبية قوية جماهيرية. وخلال مناقشاتنا الحامية أنا وكريم.. تسلل كامل.. وخرج.. وفي أقل من ساعة.. كان هناك أكثر من ألفي مواطن أمام البلدية، يهتفون بغضب، وثورة، ضد عنصرية كهانا.. وعدوانيته.. وغطرسته. وانطلقت التظاهرة.. تطوف شوارع وميادين رام الله والبيرة.. وقد منعت قوات البلدية كهانا وجماعته من الوصول إلى البلدية عبر حاجز يبعد حوالي ثلاثين متراً عن مبنى البلدية.. ومن ثمّ.. أطلقت سيلاً من قنابل الغاز المسيل للدموع علينا.. وزخات من الرصاص.. ما أدى إلى جرح العديد من المتظاهرين وإصابة العشرات بحالات الإغماء. كانت هجمة الجيش على المتظاهرين هجمة شرسة عدوانية.. لم تكن تحاول الفصل بين الطرفين.. بل انضمت وبصورة صريحة إلى الطرف المعتدي.. وأصيب كثيرون ومنهم جورج عويس.. وبانتهاء المواجهة حضر إلى بيتي كامل ومعه المناضلة مها نصار.. وأخذنا نبحث عن كريم خلف وإبراهيم الطويل.. فقد كنا في حالة قلق عظيم عليهما.

قصة استشهاد المناضل مصطفى العكاوي

ومن أوراق كامل جبيل الهامة.. تستوقفني حادثة استشهاد زميله المناضل مصطفى العكاوي.. ابن القدس البار.. في زنازين الخليل قبل عشرين عاماً، وهو يرويها على صفحة الشبكة العنكبوتية للمحامية المناضلة نائلة عطية.

يقول كامل:

تعودت أن أقرأ لهذه المناضلة، التي ربطتني بها ذكريات العمر المديد، منذ أن كانت تزحف لتصل إلينا في معتقل النقب الصحراوي.. وأقول تزحف.. لأنها بالفعل كانت قدوة لكل محام، عليه أن يبذل كل ما في وسعه ويحارب لزيارة المعتقل والوقوف إلى جانب المناضلين المعتقلين ودعمهم أمام غطرسة القضاء الإسرائيلي المنحاز.

نائلة عطية محامية من نوع آخر

كانت ترافق كل من يصلنا، لأنها لم تكن تمتلك مركبة خاصة بها لتستغلها، كما أنها لم تكن تمتلك ما يعيلها لكونها محامية في فترة التدريب.

كانت تصر على القدوم كل يوم، ما عدا يوم السبت المشؤوم، الذي لا تسمح فيه إدارة النقب بزيارة المحامي أو القيام بأي عمل آخر. كانت تحضر كل يوم وهي غير واثقة من أن إدارة السجن ستسمح لها بزيارة المناضلين، كان همها أن تحضر، وبعد ذلك يحلها ألف حلال. تعودت مثلنا على شباك النقب، وحرارة أيامه الشديدة الخانقة، لقد تعودنا عليها، وروضنا أنفُسنا على الألم والعذاب، وكنا قادرين دائماً على خلق لحظات بديعة في ليالي، كتبنا فيها الأشعار، وغنينا، وسمرنا، وكنا نتناقش، ونتحاور ونتفاعل مع كل قادم جديد.

كنا نمضي ساعتين، وربما ساعتين وأكثر.. كانت ترتد فيهما لنا الحياة التي كنا نفتقدها بفعل الطقس القاتل بين حر شديد وبرد قارس.. كأن الطقس قد تحالف مع قاتلنا "إتسيمح" قائد المعتقل والذي قتل بيده أسعد الشوا، وبسام السمودي.

ويواصل كامل جبيل ذكرياته مخاطباً المحامية عبر الصفحات الالكترونية:

لم أكن أدري بأنني سأقرأ يوماً، ما ستكتبينه عن تلك اللحظات التي لم ولن تغيب عن بالي، ولم يخطر ببالي ولا حتى في الخيال أننا سنستعيد تلك الذكريات المليئة بالحزن والشجن والدموع..

تلك أيام حزينة قاسية لا زلت أحمل معاناتها، وما أحدثته لي من علة مرضية.. فقد تركتني بطيء الحركة، عليل الجسد، واهن القوى. ولا زلت أذكر تلك اللحظة التي أخرجوني فيها من زنزانتي في الخليل إلى غرفة القاضي لتمديد اعتقالي، وكانت العواصف الثلجية التي تعاقبت في شتاء عام 1992 ترسل عاصفة جهنمية من ثورة الطبيعة التي لم أشاهد مثلها في حياتي وأنا ابن الستين عاماً الآن.

ملاك الموت يرفرف حولي وحول صديقي مصطفى

خرجت من الشَّبْح، وقلة النوم، والموت البطيء القاسي، ونظرت حولي.. كانت زوجتي ومعها زوجة أحد الرفاق المشبوحين وأدركت بأنهما لم يتعرفا عليّ، وعرفت.. كم تأثر جسدي وكم طرأت عليه التغييرات لدرجة أن لا تعرفني من تعيش في قلبي وفي كياني.

فلما عرفتني صعقت من هول ما ترى، وبان عليها، ولكنها لم تجرؤ على أن تفعل شيئاً سوى أن تذرف الدموع، وتغالب نفسها لكي لا ينطلق صراخها، لأنها مهددة بالطرد من المكان في حال خرج منها أي صوت يصل إلى آذان الجنود الذين لم يكونوا يعرفون حقيقة الصلة التي تربط أي منهن بأي معتقل، وكل ما لديهم من معلومات أنهن من طرف مكتب المحامية.

كنت أعاني آلاماً مبرحة بسبب خلع كتفي.. ولكني كنت أخفي آلامي مستمداً العزم والثبات من صمود زملائي الذين يتعرضون لمآسي فترة التحقيق الجهنمية.

كانت رجولتهم وصلابتهم وصمودهم وهم مشبوحون، متألمون، متوجعون ولكن بدون آهات تبعث في نفسي رباطة الجأش والثبات.

وكان مصطفى العكاوي واحد من أولئك الأبطال، خرج لمقابلة القاضي في تلك اللحظات، لم يشتكِ لأحد آلامه وما كان يعانيه من تمزق في داخله.

وعندما اكتشف القاضي.. حقيقة ما نعانيه.. أنا ومصطفى قرر تحويلنا إلى المستشفى بناء على طلب المحاميتان.. ولكن دون أن يرى أحدنا الآخر.

وفي سخرية مريرة قال لي ضابط السجن العسكري:

- لقد أبلغني القاضي العسكري بأنه قرر تحويلك إلى المستشفى.. حسناً.. سترى بعد قليل أي مستشفى سننقلك إليها.

ملاك الموت يرفرف حولي

في تلك الليلة سحبت إلى سطح العمارة إلى مكان، لا أستطيع أن أصف قسوة برودته، وأظن بأن الوقت حينها كان بعد منتصف الليل، شبحوني على مقعد لا يرتفع عن الأرض أكثر من عشرين سنتيمتراً، وكنت أرى الثلج من تحت الكيس الذي يضعونه على رأسنا خلال فترات الشبح، والأيدي مقيدة، ومربوطة بالكرسي، وكذلك الأرجل مشدودة بعضها إلى بعض.

بعد فترة من الوقت، زادت أو نقصت، فلا حساب للوقت الذي لا يمر بالمطلق. سمعت فرقعة تلاها حركات وتحركات. بعدها لم أعش بالوعي، لكي أعرف ماذا حصل. ولم أعرف الوقت الذي مر بعدها لأجد نفسي في زنزانة فيها بطانية، وفوق صدري من يفرك جسدي بيديه، وما أن فتحت عيني حتى قام الجندي بالصراخ باللغة العبرية.. فهمت منها بأنه يقول لقد صحا.. ومن ثمَّ قدم لي "جالون" ماء وعاملني معاملة لم ألمسها منذ اليوم الأول لاعتقالي.. وكان قد مضى على اعتقالي حوالي أسبوعين.

كانت معاملتهم لي باهتمام موضع دهشتي واستغرابي.. ولم أدرِ سبب هذا التغيير المفاجئ.. مكثت أكثر من أسبوع داخل الزنزانة وحيداً.. إلى أن أدخلوا علي شخصاً ليقول لي بعد ساعات:

- إن أحد المعتقلين، واسمه مصطفى العكاوي قد قتل في الزنازين.

ولم أبالِ بما قاله، وطلبت منه مجدداً أن يعلمني تلك الأغنية الخليجية التي كان يرددها أمامي.

وبعد أيام أخرجوني من الزنزانة، وأدخلوا رأسي في الكيس، وفهمت بأنهم سيعيدونني إلى التحقق، وكان ذلك ولكن لدقائق فقط.

وفي هذه الجولة الجديدة أبلغني ضابط التحقيق، بأنهم قرروا عدم سؤالي حول إن كنت أعرف مصطفى العكاوي أم لا، وهو ما كنت أنفيه، وأصمم على أني لا أعرفه.

- لقد قتلناه، ولن نسألك عنه مرة أخرى.

حينها قلت لنفسي:

- أي قصة هذه التي ابتدعوها، ليلعبوا فيها على أعصابنا؟

ولكن الجواب كان ليخترعوا من القصص ما شاءوا..

لعبة اسمها الموت

بعد ذلك بأسبوع قدمت المحامية المناضلة "نائلة" وبصحبتها المحامية "ليئا تسيمل"، وأمام قاض آخر وفي غرفة أخرى.. ما أن دخلت حتى سمعت المحاميتان تقولان: لقد طلبنا إحضارك الى هنا لكي نتأكد من أنك لا تزال على قيد الحياة ولم تستشهد كما استشهد مصطفى العكاوي.

ولكنني حينها تأكدت أن القتل بالنسبة لهم ليس سوى "لعبة".

وتعلق المحامية المناضلة نائلة عطية على ما كتبه كامل جبيل فتقول: "لقد هزني جداً ما كتبه الصديق أبو أيمن، لقد أعاد إلى ذاكرتي أياماً نهشت من عمري وشبابي.. بذلتها بحب وسماحة دون أي مقابل مادي، وحسبت في لحظة غفلة أنها ضاعت من عمري هباء، وانسابت دموعي، اختلطت دموع الفرح بدموع الحزن.. وتذكرت أيسر وساري أبناء كامل وكل أبناء المعتقلين الذين كنت أزورهم وأشاركهم الاحتفال في أعياد ميلادهم.. فقد كان آباؤهم صورة مشرفة للبطولة واستحق أبناؤهم أن يجدوا من يتمنى لهم حياة سعيدة في أعياد ميلادهم، وينوب عن أبائهم في تقديم قُبلة وبسمة وفرحة وهدية.

مصطفى العكاوي .. أي يد آثمة اغتالته

وفي مكان آخر تروي المحامية المناضلة تفاصيل عن استشهاد المناضل الرفيق مصطفى العكاوي فتقول:

كان ذلك ليلة استشهاده في آخر الليل في الرابع من شباط عام 1992.. همست له ونحن في قاعة المحكمة:

- أنا حيفاوية يا عكاوي.

قلت ذلك بصوت مهموس لأن الحديث المباشر معي ممنوع.

كنت مع الصديقة "أم ايمن" جبيل بسيارة خردة، بالعتمة والثلج في المحكمة العسكرية بالعمارة في الخليل.. وكانت ليلة لا أنساها.

مصطفى اعتقل مع مجموعة من قيادات الجبهة الشعبية في 22 كانون الثاني، واقتيد إلى سجن الخليل، أيام البرد والثلج القارس الذي غطى البلد، وجبال الخليل لأيام طويلة، وهو بالعراء على سطح العمارة.. ثم اقتادوه للزنازين الباردة.. ومنها إلى التدفئة بالهواء الساخن جداً.

في 4 شباط أدخلوه إلى غرفة تمديد الاعتقال.. وحتى تلك اللحظة فلم يكن يعرفني إلا بالاسم، وكان اللقاء والحديث ممنوعاً معه، فرميت كلمتين له "أنا حيفاوية يا عكاوي" ليفهم. فكشف عن ذراعيه ومعصميه وهما بالكلبشات.. فظهرت آثار الشبح وقد حفرت لحمه وتركت آثارها على صدره.. فطلبت من القاضي أن يسمح له بالظهور لكي يفسر ما يريد ولنعرف ما يقصده من الإشارة لصدره من الناحية اليسرى.

كنت بالغرفة معه، ومع القاضي والمدعي وحدنا.

لم أدرك لحظتها، أني سأكون آخر من يرى بحياته من شعبه، لم أتخيل أن الموت كان قريباً منه إلى هذا الحد.. وفي نهاية الجلسة رفض القاضي أن يمدد اعتقاله ثلاثين يوماً أخرى للتحقيق، ووافق على طلبي بأن يفحص حالاً، ويتم عرضه على طبيب، وأمر بإحضاره مع التقرير خلال أسبوع، أي أن يمدد اعتقاله أسبوعياً.

ودعناه بالدعاء والدموع أنا وأم أيمن التي عرفها حين رآها.. جرجروه.. وكان الليل قد بدأ. وعدنا ولم نلبث أن أخبرنا أنه سقط شهيداً، وله ولد وحيد هو عبد الله... أتمنى أن يكون اليوم يرفع رأسه مزموماً بأبيه البطل مصطفى العكاوي الذي لن أنساه.

في مدرسة الحياة .. خطوات واعدة

ولد كامل جبيل في مخيم الأمعري برام الله عام 1951، والده جاء مهاجراً من قرية "النعاني" قضاء الرملة.. أنجب الوالد ستة إخوة، وثلاث بنات.. إضافة إلى ستة مواليد لم تقدر لهم الحياة.. يقول كامل:

كان والدي يشتغل في التجارة الموسمية، وكانت له بسطة خضار يبيع فيها البطيخ، مات وأنا في العشرين من عمري. وكنت وأخي إبراهيم نعشق الفن.. وخاصة المسرح.. وكان أبي من ذلك الجيل القديم المحافظ.. الذي لم يكن يؤمن بجدية الأعمال الفنية، ولكنه عندما كان يرانا متحمسين ومندفعين في هذا التيار سلم بالأمر الواقع، بل إنه طلب من والدتي.. وهو على فراش الموت أن تذهب إلى قاعة مسرح الكاثوليك.. وتزغرد عندما يبدأ العرض المسرحي.. وعندها.. شرحنا له أهمية الفن.. وأنه خندق للنضال ومقاومة العدو.. أبدى كثيراً من الارتياح والتشجيع.

جمهورية مخيم الوحدات

في تلك الفترة المبكرة التي أعقبت هزيمة حزيران.. بدأ الشباب المثقف.. يتخذ من الأندية الرياضية والفرق المسرحية والصحف والجمعيات ستاراً للعمل الوطني السياسي.. وإني أستذكر في هذه الفترة ما قام به عزمي الشعيبي والدكتور عبد العزيز الحاج أحمد والمحامي جميل الطريفي والأستاذ نعيم جابر الذين أسسوا "النادي الأهلي بالبيرة".

وكان انخراطي في العمل المسرحي.. أنا وأخي إبراهيم.. امتداداً لمرحلة بدأناها في مخيم الوحدات في عمان.. فقد كان هذا المخيم منبع كل الثورات.. فكانوا يطلقون عليه "الجمهورية".. وهناك قدمنا مسرحية "ثورة الموتى" التي كانت تحرض على الثورة.

دبابيس .. الفرقة المسرحية الرائدة

في رام الله.. قمنا بتقديم عروض مسرحية بالاشتراك مع نقابة العمال.. ومن ثم أنشأنا فرقة مسرحية باسم "دبابيس".. وبعد عدة عروض.. ونشاطات شملت الكثير من مدن الضفة ومخيماتها.. أمرت السلطات بإغلاق الفرقة وتم اعتقال أخي إبراهيم عام 1972. وبعد ذلك اتجهت إلى الصحافة، فعملت مراسلاً لجريدة "الفجر" عام 1977.. ومن ثم التحقت للعمل بأسرة المكتب الفلسطيني بالقدس... وتعرفت إلى ريموندا وكنت من ضمن عشرات الكوادر والشخصيات الوطنية واليسارية التي تتردد على بيتها.

عشر اعتقالات .. فقط

يقول كامل: وقد تعلمت منها الكثير.. تتلمذت في مدرسة المكتب الفلسطيني التي كانت تضم نخبة من الإعلاميين الممتازين. تعرضت لسلسلة من الاعتقالات.. كان أولها في 1972/1/1 وكرت المسبحة.. فبلغت عدد مرات الاعتقال عشر مرات كانت معظمها.. للتحقيق... وهو أصعب مراحل الاعتقال.. حيث يتعرض المعتقل

لأقسى أنواع التعذيب.. وأقول بكل صدق وشفافية إنني لم أعترف ولو مرة واحدة طوال فترة اعتقالي.. وهذا ما أعتز به ويشرفني.. وأمام صمودي كان يتم تحويلي إلى الاعتقال الإداري حتى أني أمضيت ثلاث سنوات ونصف في الاعتقال الإداري.

الانتفاضة الأولى حدث عالمي

وعندما اندلعت الانتفاضة الأولى.. كان قد بقي على اعتقالي الإداري ثلاثة شهور.. وكنت متحمساً للخروج.. لرؤية الجماهير ولمعايشة الانتفاضة التي سجلت أعظم ظاهرة نضالية.. ليس على المستوى الفلسطيني أو العربي.. بل والمستوى العالمي.. "العنف السياسي".. هذا هو الاصطلاح الذي ينطبق على الانتفاضة الأولى، التي جعلت الشعب الفلسطيني أسرة واحدة وفريقاً واحداً وحققت وحدة صف وهدف وتكامل.. لم يسبق له مثيل.

كنت في شوق لأرى كيف يتعامل الناس، وكيف يتواصلون وكيف يتعاونون وكيف تضبط لجان الانتفاضة الحياة بسهولة ويسر وانضباط.. دون محاكمة ودون عنف ودون ممارسات.. كانت أدبيات الانتفاضة وتقاليدها تدخل الفرحة على قلوبنا.. ولما انتهت الأشهر الثلاثة.. ومثلت أمام القاضي.. قلت له/

- كيف أكون قائداً من قيادات الانتفاضة.. مع أني كنت عندكم في السجن عندما اندلعت الانتفاضة في شهر ديسمبر عام 1987.

قال المدعي: لقد كان يقود الانتفاضة من السجن.

كتيبة كاملة لاعتقال فرد

في عام 2002... سنة الاجتياح كنت ساكناً جديداً في حي الطيرة ولم يكن عنواني معروفا إلا لقلة قليلة من الأصدقاء.. كنت برفقة أكرم هنية.. عندما جاءت الدبابات لاعتقال.. إنسان فرد هو كامل جبيل.

وببساطة.. وتفاؤل.. ورنة فخر في صوته يقول كامل:

لقد كانت حصيلة اعتقالاتي المتواصلة سلسلة من الإمراض: روماتزم بالحوض، وقلة الحركة، وصعوبة الوقوف، ساقاي مخدرتان، وتقوس ظهري، وأوجاع في الظهر والساقين.. أعيش بالمسكنات اليومية.

ولكني.. أواصل الحياة.. والعمل والعطاء.. وأقوم بخدمة الجماهير في مجلس بلدية رام الله.. حيث تم انتخابي عام 2005.. وأنا عضو في كل لجان البلدية وأشعر بالسعادة.. عندما أساهم في إسعاد الآخرين على مستوى البلدية أو على مستوى مصلحة المياه.

(2012/5/18)

جانيت نيقولا حنا ميخائيل

درست الكيمياء في أمريكا ونبغت وتفوقت عليهم في عقر دارهم
عادت لتضبط إيقاع النبوغ والعبقرية والعطاء
مديرة لمدرسة ورئيسة لبلدية
رفعت مكانة المرأة العربية وأفسحت لرام الله مكانة بين مدن العالم

كان يوم 2005/12/15 يوماً لا أنساه.. ففي هذا اليوم تم انتخاب أول امرأة في تاريخ المنطقة وفلسطين بالذات لتكون في منصب رفيع هو رئاسة بلدية واحدة من أهم وأعرق المدن الفلسطينية ألا وهي رام الله.

لقد جاءت نتيجة الانتخابات فوزاً ساحقاً للكتلة التي انضمت إليها الأخت جانيت حنا ميخائيل وسجلت أحسن وأعلى الأرقام ما أهّلها أن تكون رئيسة للبلدية.

وهذا النبأ ملأ نفسي بالشعور بالفرح والفخر لأن كل إنجاز تحققه المرأة في المجالات غير التقليدية والتي تكاد تكون حكراً على الرجل يسبب لي إحساسا بالسعادة وشعوراً بالتفوق والفوز لأني كنت لسنوات طويلة وأنا في صراع سياسي مع العدو، وصراع اجتماعي مع تقاليد وقيم وعادات سقيمة بالية حاربت أنا ورفيقات لي ببسالة وشجاعة لإزالة مظاهر الظلم التي تغل طاقات وأيدي وملكات المرأة الفلسطينية المتطلعة إلى العمل والعطاء والنبوغ.

وربما تكون جانيت هي الثانية وليست الأولى على هذا المضمار فقد سبقتها إلى هذا الشرف فيوليت خوري رئيسة بلدية كفر ياسيف وذلك في أوائل 1952.

وكانت فيوليت خوري زميلة لوالدتي كريسماس يوسف قبطي في العمل الوطني والنضالي والشؤون الاجتماعية بعيد نكبة عام 1948 وكانت خريجة الجامعة الأمريكية وعلى جانب كبير من الوعي والثقافة والإيمان بالعمل الاجتماعي والوطني.

وبحكم صداقتها لوالدتي كنت على اطلاع بالنشاط الاجتماعي والقومي الخطير الذي كانت تقوم به والدتي وصديقتها المخلصة فيوليت خوري.

اقتفاء شذا العبقرية

وفي حياة صديقتي جانيت رئيسة بلدية رام الله، العديد من تلك الومضات العبقرية التي اقتفي أثرها في هذه السلسلة من المقالات، حيث نغوص معاً في ملفات حياة هذه الشخصيات لنستخلص منها تجارب إنسانية، ومواقف وطنية، وإبداعات إنسانية تستحق التأمل والاستنطاق والاستبطان والدراسة.

هذه فتاة فلسطينية شابة في الربيع من عمرها.. تحط رحالها في الولايات المتحدة الأمريكية، في ولاية بورت لاند أورجن عام 1972.. لتَدرُسَ الكيمياء.

كان كل ما حولها يثير مشاعر التحدي.. والرغبة في التفوق وإثبات الذات، ليس من منطلق فردي ذاتي فقط، وإنما من منطلق قومي، فالفلسطيني يحمل صليبه ويمضي محارباً دفاعاً عن شعبه وقضيته في كل مكان، وعَبرَ كل خندق نضال، إنه سيزيف الذي يحمل صخرته ويحاول الصعود إلى قمة الجبل مرة بعد أخرى.

وجدت الطالبة اليافعة جانيت نفسها محاصرة بأوهام الجهل، والخزعبلات، والأفكار الساذجة عن العرب.. والفلسطينيين.. فكل من حولها يعتقد أن العرب.. مجرد قوم من البدو الرحل، وأنهم لا يزالون يركبون الجمال ويعيشون في الصحراء.. ويتنقلون على ظهور الخيل. يقطعون الطرق ويمتشقون السيوف.. ويمتطون ظهور الخيل.. يحارب بعضهم بعضاً.. ويلهثون وراء النساء والخمر. ويلبسون ملابس الأعراب، ولا يعرفون أي لون من ألوان الحضارة.

وانحنت الهامة إجلالاً لأبيها

هذه الأوهام الساذجة المكذوبة، وهذه التصورات الجاهلية الحمقاء استفزت الفلسطينية الشابة ابنة رام الله التي جاءت لتدرس الكيمياء.. فأيقظت هذه النظرة الفوقية المتجنية كل ملكاتها وطاقاتها، فدرست وتفوقت وأبدعت.. وكانت الأولى على دفعتها.. في كل مراحل دراستها.. وعندما تخرجت أرسلت الجامعة إلى والدها، ليحضر حفل تخرجها.. وكرمته إدارة الجامعة.. كرمت النبوغ وفلسطين ورام الله في شخصه الذي أنجب هذه الجامعية المتفوقة.

هوى رام الله .. أغلى من بريق الحضارة

جانيت نيقولا ميخائيل.. أول امرأة في فلسطين تتولى منصب "رئيس بلدية" وكان ذلك في مدينة رام الله.. التي، ولدت وترعرعت فيها.. ولما سافرت إلى أمريكا لم تبهرها مظاهر الحياة الغربية.. ولم يؤثر فيها نمط وإيقاع المدنية العصرية ولا بريقها في المدن الأمريكية بكل ما فيها من أضواء، وحدائق، ومطاعم، وملاهي، وأزياء، وسيارات.. ولم يستطع ضوء الحضارة أو بريقها أن يبهر عيني جانيت.. فعادت إلى وطنها لتفيده بكل حرف وكل معنى وكل قيمة نافعة نبيلة غرستها سنوات الدراسة في وجدانها.

وهذا أنموذج رائع من المواطنة.. فما أكثر النابغين في فلسطين والعرب.. وما أكثر المبعوثين والدارسين.. ولكن معظمهم تفقده أضواء الحضارة توازنه، فيضيع ويضيّع وطنه.. حيث تبهره الأضواء.. فتفقده الرؤية والرؤى وتعمي بصره وبصيرته.. فيتوه في زحمة الحياة والناس ويصبح مخلوقاً بلا شخصية.. فلا هو عربي ولا

هو شرقي، ولا غربي ولا هو أمريكي، ولا هو قومي فلسطيني، إنه إنسان ضال حائر بلا هوية ولا هدف ولا كيان.

جانيت.. سافرت ودرست.. وعادت.. لتكون طائراً غرّيداً يشدو على أفنان أشجار رام الله وجبالها وروابيها.. لتكون يداً عاملة تنشر الفكر والعمل والإبداع.. وتغرس أزهار الزيتون والبرتقال.. وتحارب.. لتجعل مدينة رام الله في مصاف المدن العالمية المعروفة.

بالعلم والتخطيط .. نسمو

إنَّ حضور جانيت الإنساني والأدبي والنضالي- كامرأة متفوقة في منصب حيوي خطير.. في مدينة تشهد الدراسات بأنها من أجمل مدن العالم وأروعها جواً ومناخاً.. كل ذلك.. لفت أنظار العالم.. فسمت رام الله بسمو ابنتها.. وزهت بزهوها.. وازدهرت بازدهارها.

إن الوطنية الصادقة البناءة، ليست بنادق وخنادق فقط، وإنما حضارات الأمم، وبناء الدول.. وصناعة الأوطان تحتاج إلى العلم.. والعمل.. والتخطيط.. والمثابرة.. وإدمان النجاح والتفوق.. والاستغراق.. والتفاني.. والعطاء.. وإدمان مبدأ لذة الانجاز المعروف في علم النفس.. وما أصدق ما يقوله الشاعر العربي القديم:

"بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يُبن ملك على جهل وإقلالِ"

مديرة .. على خطا عمتي جميلة

ولدت جانيت في 1942/11/13 في مدينة رام الله، ولكنها تتمتع بحيوية وشباب ابنة الثلاثين.. وكثيراً ما تذاكرنا سوياً.. تلك الملاحظة الذكية.. إن الذي اخترع العد في السنوات كان ضالاً ومضللاً.. من قال له أن يمسك الآلة الحاسبة ويحصي عدد الأيام والشهور والسنين .. ما دام الإنسان يعيش.. فهو يمتلك الزمن.. والعمر إحساس أولاً وأخيراً.. كما يقول إحسان عبد القدوس.

في جديتها.. ورصانتها.. وحكمتها تجد حيوية الشباب وتفاؤله ومرحه. وهذه الشخصيات الإنسانية تبهرني.. لأنها تنقل إلي إحساس التفاؤل والمرح والشباب والرغبة في التجدد والعطاء والعمل.

كان ميلاد جانيت في بواكير عام 1943.. لأب يعمل بالتجارة في مدينة رام الله.. وكانت عمتي هي بمثابة أمي، مديرة لمدرسة رام الله الثانوية للبنات.. وكان ذلك في عام 1932.. وقد دارت عجلة الزمن لأجلس على نفس الكرسي الذي جلست عليه عمتي.. وأصبحت مديرة لنفس المدرسة.. وقد أثرت عمتي في حياتي تأثيراً شديداً.. كانت مَثلي الأعلى.. ولعلي عشقت التعليم.. وصبوت إلى الإدارة لأنها كانت مثلي الأعلى.

بعد أن أنهيت الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، التحقت بدار المعلمات برام الله- كلية التربية.. التي أغلقت بعد سنتين، والتحقت بمهنة التدريس معلمة للرياضيات والعلوم لمدة ثماني سنوات.. ثم دفعني طموحي إلى السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لدراسة الكيمياء في ولاية بورت لاند اورجين، وكان ذلك عام 1972.. وقد حصلت على منحة من جامعة جورج فوكس.

في الجامعة كنت الطالبة الفلسطينية الوحيدة.. وقد هالني ما رأيته ولمسته من جهل الأمريكيين بالقضية الفلسطينية.. لم يكن لديهم فكرة عن العالم العربي.. بل إن أكثر من تسعين في المائة منهم لم يسمعوا عن العرب ولا معرفة لهم بهم.. وذلك حسب استطلاع تم إجراؤه أخيراً.

وقد حاولت جهدي.. أن اشرح لهم قضية فلسطين، وحاولت أن أعرّفهم بأننا شعب له حضارة وتاريخ وحضور، ووضعت أمام ناظريهم حقيقة الظلم التاريخي الذي يلحق بالشعب الفلسطيني.

في يميني الكتاب .. وفي يساري قضية بلادي

في الجامعة كان علي أن أرفع علم بلادي عالياً، عليّ أن أكون عنواناً مشرّفاً لشعبي ووطني.. ولا شك أن المعرفة أكبر سلاح.. وأن الجهل أكبر الأعداء وأشدهم خطورة.. فأخذت أعرف الطلاب والطالبات والمواطنين من شتى المشارب والمستويات على قضية الشعب الفلسطيني.. وأشرح لهم مدى الظلم التاريخي الذي ألحقته السياسة العنصرية المنحازة بأهل فلسطين. كان العرب، وكانت قضيتهم مجهولة تماماً وغائبة عن وعي أو أي معرفة للمستوى السياسي أو العلمي الأكاديمي أو الشعبي.. وقد شرحت لهم حقائق التاريخ وبصرتهم بالواقع الجغرافي.. وأهديتهم عشرات الصور للعلم الفلسطيني وقدمت لهم المطرزات الشعبية الفلسطينية، ومئات الصور المبهرة عن طبيعة رام الله الساحرة ومظاهر الحياة والحضارة والتاريخ والإنسان فيها عبر العصور. وكان لوجودي وتفوقي الدراسي وحضوري المتواصل في كل المناسبات، أثر كبير في الجامعة وفي تعرف الطلاب والأساتذة على وطني فلسطين، ومدينة الروح والقلب رام الله.

بالعمل وحده .. تتغير الرؤى

ومن انجازات تلك الفترة أن استقبل أهلي في رام الله وفداً من الجامعة.. ولقي الوفد اهتماماً جماهيرياً واسعاً وأغرق أهلي الوفد الزائر بمظاهر التكريم والحب.. ما كان له أكبر الأثر في نفوسهم.. فشعروا أنهم يتعاملون مع شعب مثقف له حضارته وذوقه وإحساسه المرهف.. وأدركوا أن الكرم.. صفة أصيلة من صفات الإنسان العربي.

كنت على يقين دائماً.. بأن تفوق الإنسان في عمله.. يجب أن لا يستغرق كل وقته واهتمامه، لا بد أن يكون للإنسان المتوازن هامش هام يبذله من أجل وطنه أو من أجل قضية عامة، وعلى العكس من ذلك فإن استغراق الإنسان في العمل والسعي وراء الرزق.. يحوله إلى مخلوق أناني بليد المشاعر.. لا يعرف أي سعادة ومشاعر حب يخسرها عندما لا يعمل من أجل وطنه.

ومن هنا كرست كل طاقاتي للتفوق الدراسي من جهة.. والعمل الخلاق من أجل وطني من جهة أخرى.. وأذكر أن أحد الأساتذة الأمريكيين نشر مقالاً ذكر فيه أن الشعب الفلسطيني لم يعرف مظاهر الحياة العصرية إلا بعد عام 1967.. أي بعد الاحتلال الإسرائيلي. وتصديت لهذا الأستاذ وواجهته بالحقائق.. وأطلعته على حضارة ومعالم وجمال وتاريخ القدس ورام الله وبيت لحم.. فأدرك خطأه.. واعتذر.

"ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا"

إن الحركات المعادية لعروبة فلسطين، وحقنا في الاستقلال والحرية تشوه كل شيء.. وتقلب الحقائق وتزور التاريخ، وليس من وسيلة للرد عليهم إلا بالعمل والعلم والتفوق.. فالحقيقة.. لا تظهر وحدها.. هكذا بلا عمل.. ولا معاناة وإنما للحقيقة جنود أوفياء عليهم دائماً أن يدافعوا عنها.

وعندما تعمل بمصداقية وجد وشفافية تنل شرف النجاح والتفوق.

"وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا"

واعترافاً من الجامعة بمجهودي.. تم دعوتي إلى مؤتمر الطلاب العالمي عام 1973.

وفي عام 1975 نلت درجة البكالوريوس في الكيمياء.. في أساليب تدريس الكيمياء للصفوف الثانوية.. وكان نجاحي بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف.

وعدت إلى لؤلؤة فلسطين

كانت فرص العمل أمامي في أمريكا متاحة.. وكان الوصول إلى حياة سهلة.. حافلة بالثراء.. والمال.. على قيد خطوات مني.. ولكن حبي لرام الله.. وفلسطين.. فاق كل شيء فحزمت حقائبي وعدت.. لأعمل مدرسة للكيمياء في مدرسة رام الله الثانوية.. براتب قليل.. وعناء كبير.. ومسؤولية محببة.

كان حبي لموضوعي.. يسري في دمي.. وكانت كيمياء الحب تتواصل بيني وبين أجيال من الطالبات اللواتي عشقن موضوع الكيمياء.. وهذه حقيقة يعرفها النابغون من المعلمين والمعلمات.. حيث يؤثر المدرس أو المدرسة في مسيرة حياة طلابه وطالباته.. عندما يتحول إلى مثلٍ أعلى لهم. وكنت دائماً قادرة على أن أرصد النبوغ والتفوق في شخصية طالباتي.. فأنميها.. وأهتم بالمتفوقات.. لأضعهن على طريق النبوغ والتميز.

وكانت.. عمتي دائماً في مخيلتي.. ومسيرتها التربوية وتصافحها زادي.. ومرشدي.. وكان مشواري وقدري.. أن أكون أمثلها مديرة لمدرسة بنات رام الله الثانوية.

دع مئة وردة تتفتح ولكن في حديقة النبوغ

عندما وقع الاختيار عليّ لأكون مديرة لمدرسة بنات رام الله الثانوية في عام 1986 وذلك بعد مقابلة مع لجنة الامتحانات العامة في مدينة طولكرم.. كان كل تفكيري يتجه إلى أن أكون أولاً وأخيراً في صف "النبوغ".. أن اقتفي أثر كل طالبة مبدعة ذكية، وأن آخذ بيدها، وأشجعها وأرعاها، لكي تتفوق وتبدع.. ولم أكن أخطط لكي تكون طالبات مدرستي من العشرة الأوائل في امتحان التوجيهي فقط.. بل كان هدفي أبعد من ذلك، وهو أن أغرس في نفوسهن قيمة حيوية هامة وهي إدمان التفوق.. وكنت أومن ولا أزال لو أن كل مدرسة من المدارس الحكومية أو الأهلية خرجت طالباً واحداً أو طالبة واحدة مبدعة.. لأصبح الشعب الفلسطيني في طليعة شعوب العالم. لأن عدد المدارس أكثر من ألف مدرسة.. أي أنه سيكون لدينا جيش من النابغين. هذا الطالب أو الطالبة "الفرد".. كان دائماً في برنامجي في أجندتي المدرسية.. وبالفعل، استطاعت مدرستنا.. أن تكون في طليعة مدارس الضفة الغربية من حيث نسبة النجاح وعدد المتفوقين من أوائل الثانوية العامة على امتداد أعوام عديدة، كما أن أكثر من تسعين طالبة في كل عام، كانت نتائجهن فوق التسعين في المائة.

إنني مؤمنة.. بأن العبقريات الدفينة المغمورة.. في حاجة دائماً إلى الدعم.. وكنت أقدم هذا الدعم بأن أُحضر لطالباتي خيرة المعلمين والمحاضرين واستقدم لهن أساتذة الجامعات النابهين وأحاول دائما أن أتغلب معهن على الصعوبات التي قد تعترضهن.

وتشتد مؤازرتي.. وتتضاعف.. عندما أصادف العبقرية في طالبة من بيئة فقيرة.. أو متواضعة.

ضبط إيقاع النبوغ والتفوق

بالتعليم الجاد والممنهج المنضبط، والخاضع لقواعد وبرامج علمية طموحة، يمكن أن ترقى الأمم.. وتتقدم. وهذا ما يقوله الدكتور أحمد زويل عالم الفيزياء المصري الذي فاز بجائزة نوبل، لقد قال:

إني لم أتلقَ تعليمي في مدارس خاصة "مدارس اللغات" بل كنت طالباً في المدارس الحكومية.. والمواهب والقدرات يمكن أن تنبغ وتتفوق.. بالرعاية والتوجيه، ويمكن أن تذوي وتذبل بالإهمال والمناهج الخاطئة والأنظمة البالية والروتين العفن.

التعليم هو أساس نهضة الأمم والشعوب، تلك حقيقة لا جدال بها.. لقد قال بسمارك.. وزير خارجية ألمانيا يوماً: لقد هزمنا جارتنا النمسا.. "بمعلم المدرسة".

أعلام وشخصيات في قافلة النبوغ

كل ما يتصل برام الله وتاريخها وترابها وإنسانها محفور في ذاكرة جانيت، ومن أبناء رام الله الذين تركوا بصمات في التاريخ النضالي والعلمي المعاصر:

- حنا ميخائيل.. وكان بروفيسيراً.. انضم إلى الثورة الفلسطينية وسقط شهيدا في ساحة الشرف.
- فرحات زيادة.. وكان يحمل درجة البروفيسير.. وانضم إلى الثورة.
- ياسمين زهران.. كاتبة ومفكرة وأديبة.
- خليل أبو ريا.. مربي ومدير وصاحب مدرسة، ورجل بر وإحسان.
- يوسف قدورة.. مؤرخ.
- عزيز شاهين.. من أهم الشخصيات التي أنجبتها رام الله، سافر إلى الولايات المتحدة وأحرز نجاحاً باهراً.. في تجارة السجاد.. أنشأ مدرسة تعرف باسمه "مدرسة عزيز شاهين" كما قدم منحة لطلبة رام الله المتفوقين ولا زالت هذه المنحة حتى اليوم وهي تمنح لكل من درسوا في مدينة رام الله.
- ومن شخصيات رام الله الهامة حنا خلف.. وكان من المشتغلين بالسياسة.
- كريم خلف.. رئيس بلدية رام الله السابق وهو زعيم سياسي مناضل تعرض للاغتيال عندما انفجرت قنبلة في سيارته.
- ومن أروع شخصيات مدينة رام الله الدكتور حنا ميخائيل وهو عالم من العلماء النابغين، بادر مع 14 شخصية فلسطينية نابعة لها مناصب علمية رفيعة ومراكز مرموقة في العالم واجتمعوا على مبدأ نصرة الثورة الفلسطينية على أثر الأحداث الدامية في مأساة تل الزعتر حيث استقلوا باخرة في البحر الأبيض المتوسط وقد اختفت آثارهم وآثار هذه السفينة ولم يعثر عليها. وأذكر أنني عايشت مأساة اختفاء هذا العالم وشاركت زوجته مشاعرها الحزينة المتألمة الباكية وهي تبحث عن زوجها في بيروت ودمشق سائلة كل القيادات متسائلة في حسرة ولوعة عن مصير زوجها.
- حنان ميخائيل عشراوي ابنة الدكتور المعروف في رم الله داود ميخائيل، الأستاذة الجامعية وعضو المجلس التشريعي والناشطة الفلسطينية في الدفاع عن حقوق الإنسان على المستوى العالمي بكفاءة وعلم وإخلاص.

- ناديا ميخائيل وهي مديرة جمعية الشابات المسيحيات في رام الله.
- وهناك الدكتور جاد ميخائيل وهو شخصية لها حضورها العلمي والاجتماعي والسياسي.

وإلى قائمة الشرف هذه نسجل بحروف من ذهب جانيت ميخائيل، أول امرأة تتولى رئاسة بلدية رام الله في 2005/12/15.

المعادلة الصعبة .. إرضاء كل الناس

تقول جانيت:

عندما توليت منصب رئاسة البلدية كنت على علم تام.. بأني اخترت طريقاً صعباً.. ووضعت نفسي أمام تحدٍ خطير ومسؤولية كبيرة.. لأن ضبط إيقاع الحياة في مدينة يبلغ تعداد سكانها أكثر من أربعين ألف نسمة.. لكل مواطن فيها مشكلة أو مطلب أمر ليس باليسير.

ولأن إرضاء الناس غاية لا تدرك، ولأن الاحتلال موجود وهيمنته على كل شؤون حياتنا وتدخله في كل ما يتعلق بالبنية التحتية للمدينة أمر وارد، ولأن الوعي الإنساني والأخلاقي لا يزال غائباً.. فقد كان العمل في البلدية شاقاً.. ومضنياً.. ومحطماً للأعصاب في بعض الأحيان..

ومع ذلك.. فقد ازدهرت رام الله.. وانتشرت المساحات الخضراء.. والأشجار في كل ربوعها.. وشوارعها.. وازدانت ميادينها.. بالتخطيط البديع والنظافة والورود واللمسات الفنية الجميلة.. وغدت المدينة- كما هي دائماً- نظيفة، أنيقة زاهية. ترتفع في سمائها عشرات البنايات الحديثة الرائعة.. ويعبق جوها بعطر الثقافة والفكر والتحضر عبر مؤسساتها ومعاهدها وجامعاتها.

كل بيت فيها هو بيتي وخاصتي

إن لكل مواطن في المدينة بيتاً.. وربما شارعاً.. وحياً.. ولكني أشعر أن كل بيت في مدينة رام الله هو بيتي، وأن كل شارع فيها هو شارعي الخاص.. وأن كل ميدان وحي.. هما مسؤوليتي الخاصة. نظافة كل بيت، وكل شارع، وحي، وزقاق، وحديقة، وملعب، وملهى، ومدرسة، ومعهد.. هي أمانة في عنقي.. ولا بد أن يكون كل ذلك جميلاً ونظيفاً وحضارياً ولكن يد وحدها لا تصفق، يجب أن ننشر ثقافة المواطنة الصالحة.. الإيجابية.. العاملة.

نماذج من مواطَنة بديعة

لقد قرأنا يوماً.. أن وزير التربية والتعليم السابق نعيم أبو الحمص يبدأ يومه في ساعة مبكرة من صباح كل يوم.. ومن ثم يقوم بكنس الشارع وتنظيفه ونقل المواد التي جمعها في أكياس سوداء ومن ثم وضعها في الحاوية.

يفعل ذلك.. وهو الأستاذ الجامعي الأكاديمي الحاصل على درجة الدكتوراه.. وهو الوزير الذي يدير وزارة فيها آلاف المدرسين والإداريين وعشرات الآلاف من الطلاب.

يكنس الشارع.. ويرشه.. ويتفقد نظافة الحي الذي يعيش فيه.. يفعل ذلك كل يوم وكبرنامج صباحي.. يرافق رياضة الصباح.. ذلك إنسان يستحق الاحترام.. لأنه يحب وطنه.. ويؤمن بمبادئ وأخلاقيات عالية ويسلك سلوكاً حضارياً.. يستحق أن يكون قدوة فكم منكم.. من يفعل ذلك.

إنسانية رفيعة ومواطَنة نادرة

ذلك ما تقوله الأخت جانيت.. ولي أن أضيف في هذا السياق.. أن مسعود شحادة.. وهو ضابط شرطة متقاعد ومن أسرة عريقة، صاحب منصب رفيع خطير.. كان في صباح كل يوم.. يستقبل كناس البلدية الذي يقوم بأعمال النظافة أمام بيته.. ويصر على استضافته والترحيب به حيث يجلسان معاً أمام فناء بيته في البيرة في حي الشرفة.. ويشربان قهوة الصباح.

بهذه الروح النبيلة كان يعامل .."أبو هاني".. "الكناس" لأنه يقوم بأهم وأشرف عمل.. حيث "ينظف" على الناس أو لنقل إنه ينظف الناس.. فأي مهمة أجمل وأخطر من ذلك..

وقريباً من ذلك.. أيضاً ما كان يقوم به عبد الحميد شومان رجل الأعمال الفلسطيني.. الذي انشأ البنك العربي.. أكبر المؤسسات الاقتصادية في الشرق الأوسط.. كان كل صباح.. يتفقد "حمامات" البنك الرئيسي أو أي فرع من فروع البنك الأخرى، ومن خلال.. نظافة المكان كان يحكم على أداء العاملين ومدى إخلاصهم وانضباطهم.

تقول جانيت..

ذلك ما أتمنى أن ألمسه في سلوك المواطن.. أن يترجم حبه إلى وطنه.. إلى سلوك وعمل.. فالحب أفعال وأعمال.. والوطنية سلوك ومنهاج.. وليس مقولات وقصائد.. وإنشاء عربي.

عقدة الرجل الشرقي

عزيزتي جانيت..

لقد ربطت بيننا أواصر صداقة وحب لا تنفصم عراها على مرور الأيام والسنين.. ونحن في الواقع من جيل واحد.. ومن مشارب واهتمامات متقاربة.. وهذا الحب وتلك الصداقة قوامها.. أن شبيه الشيء منجذب إليه.

وكنت دائما أتابع خُطاكِ.. وأرقب أداءك.. وأشعر بالفرح كلما حققتِ انجازاً.. لأننا لا زلنا في الواقع، نواجه مجتمعا، لا يسلم بسهولة أن تتفوق فيه المرأة على الرجل.. وكنت مشفقة دائماً عليك.. من المشاكل والصعوبات والأشواك والصخور التي تعترض سبيل حياتك.. خاصة عندما وصلت إلى منصب رئاسة البلدية عبر انتخابات شعبية شفافة.. إن حب الناس وثقتهم اكبر مسؤولية يمكن أن يتحملها إنسان.. ولذلك كان على كل من يتصدى للعمل الوطني أن يزن خطواته وقراراته بميزان من ذهب.. وبعقلانية وحكمة.. لأن العدل والشفافية والحزم هي المعطيات التي تحقق العدل.. وهو أهم القيم الإنسانية على الإطلاق.

خطأ كتبت علينا

ولا زلت أذكر ما قاله رسول كسرى عندما وجد عمر بن الخطاب نائماً تحت ظل شجرة. وقد وضع خُفيه تحت رأسه وهو خليفة المسلمين.. حيث قال: "حكَمتَ فعدلتَ فأمنت فنمت".

فهل ناس هذه الأيام يسلمون بأطراف هذه المعادلة ويقبلون بموضوعية ونزاهة وحياد كل قراراتك كمديرة لمدرسة ثانوية، أو كرئيس لبلدية هامة.

من تجربتي.. وخبراتي.. وتواصلنا معا.. نعرف.. أن التعامل مع البشر.. هو اختبار طريق العذاب.. طريق الشوك والآلام والمتاعب.. فالصحافة مهنة البحث عن المتاعب وقد أخذتها.. ومضيت فيها.. فحصدت الكثير من الشوك والألم.. والقليل من الورد.. والرضا.. ولا أخال حصاد السنين في مشوارك.. الذي أتمنى أن يتواصل.. على درب العطاء إلا قريباً من حصادي.

ولكن.. لا سبيل أمامنا إلا المضي على هذا الدرب وعلى هذه الرسالة. فكل مُيّسر لما خلق الله... والشاعر العربي القديم يقول:

"مشيناها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطاً مشاها:

(2012/5/25)

الدكتور عزمي الشعيبي

شاهد على أحداث الثورة الفلسطينية بموضعية وذاكرة توثيقية أمينة

تجربتي مع الرئيس عرفات فيها الحلو.. وفيها المر ولم يكن بيننا انسجام في الإرادة

قال عرفات: أنا أعرف عنهم ما تعرفونه وأكثر ولكن دعونا نمر بهم الوحل

مروان البرغوثي.. شخصية محورية لها محبوها

وتربطني به صداقة أخوة وذكريات نضال مشتركة

عرفت الدكتور عزمي الشعيبي مناضلا صلبا قويا.. يتصدى بجسده النحيل، وملامحه الرقيقة وابتسامته الوديعة لزبانية التعذيب وآلتهم الجهنمية، وقوى البغي والعدوان التي تكالبت عليه لتنال من عزيمته وروحه.. وتجبره على أن يفك إضرابه عن الطعام. وهو معتقل في غياهب السجون.

كان ذلك في مطلع السبعينيات عندما اعتقلت قوات الاحتلال عزمي الشعيبي، فأعلن إضرابه عن الطعام وتردت حالته الصحية، وعرفنا نحن- أصدقاءه انه في حالة خطرة وأن الموت يتهدده في كل لحظة.

وسارعت مع نخبة من القيادات الوطنية والإعلامية للاجتماع والتحرك لإنقاذ عزمي من براثن الموت المحدق به.. وكان في طليعة من هبوا للدفاع عن عزمي بشير البرغوثي، وتوفيق زياد، وبسام الشكعة، ومحمد البطراوي، وكريم خلف، وعدد من أبناء المكتب الفلسطيني، والصحفيون. كنا نحاول الاتصال بأصحاب الرأي ومن لهم صلة بالإعلام العالمي ومراكز حقوق الإنسان، وذلك لإحداث موجة عنيفة من الاحتجاج وإثارة الرأي العام لإنقاذ حياة مناضل فلسطيني مبدئي شجاع.

ولا زلت أذكر تلك اللحظات العاصفة بالشجن والترقب والقلق، وأنا أتابع وأترقب.. ولا زالت في خاطري لوعة وألم ودموع رفيقة عمرك وهي تكابد الجراح والخوف واللوعة والقلق.. تكفكف دموعها تارة وتطلق دموعها تارة أخرى، وآخذها على كتفي تارة وفي أحضاني تارة أخرى.. أحاول أن أواسيها وأن أواسي نفسي، فلا نلبث أن نغرق في الدموع معا حيث تختلط دموعها بدموعي، وزفراتها بزفراتي وحسراتها بحسراتي.

نحن بشر.. ربما ولدت فينا المشاعر الوطنية والمبادئ الطاقة الصلبة واستثارت فينا مكامن التحدي والصلابة.. ولكننا أمام من نحبهم ونعرف حقيقة أوزانهم في عالم الوطنية والقيادة، تجتاحنا مشاعر الخوف والهلع واللوعة ونحن نوشك أن نفارقهم.. أو يفارقوننا.

لقد عرفت حقيقة عزمي منذ انطلاقته في صفوف الجبهة الشعبة الديمقراطية.. كنت أدرك أن هذا الشاب الهادئ الوديع، المبتسم، المثقف صاحب الصوت الرنان والعبارة المؤدبة الصافية والمنطق العقلاني المرتب يخفي خلف مظهره الوديع هذا بركان ثورة حقيقية.

وعندما كنت أراه يتجه إلى المسرح أو إلى ساحات الملاعب الرياضية، أو إلى آفاق العمل التطوعي، أو إلى العمل النقابي كنت أدرك أن هذه مجرد إرهاصات أو مقدمات لخلق قائد ثوري مناضل لا يلبث أن يتقدم الصفوف ويرفع الراية ليقود الجماهير.

ربما كانت هذه صورة رومانسية أتمنى أن أراها تتحقق في عزمي الشعبي، ولكن المؤكد أن مساحة الحقائق والمعطيات في شخصية عزمي كانت تبشر بذلك الزعيم القادم.

بين عزمي وعرفات

يعرف الجميع مدى ارتباطي بالزعيم الفلسطيني القائد ياسر عرفات، ليس لأنه زوج ابنتي، وأستاذي، ومعلمي، ومرشدي في ساحة الثورة والنضال فحسب؛ وإنما لأنه زعيم تاريخي فذ في حجم مانديلا وكاسترو وعبد الناصر، وأن أليق مكانة به في التاريخ هو أنه رمز للثورة على الظلم والطغيان في العالم المعاصر في الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

هل أقول إني أحببت في عزمي هذه الصورة، وكنت أراه بعين خيالي رمزا حقيقيا للثورة على الفساد والقهر وعبودية الإنسان لأخيه الإنسان.

هل كنت أحلم بأنه سيكون رمزا من رموز مقاومة البطش والعدوان؟

ذلك ما كنت أحلم به، وأتمناه.

ولذلك كله لم أكن أتصور أن يكون عزمي وعرفات خصوما أو أعداءً، إن الذين يعلمون بواطن الأمور يعرفون كم يقدر عرفات الرجال الذين لا ينحنون، ولا ينافقون، ولا يهرجون، ويقفون أمامه موقف الند للند وهم مسلحون بتاريخ مشرف وأيادٍ نظيفة وضمير حي.

وكان عزمي الشعبي واحدا من هؤلاء.

الرأي والرأي الآخر

يقول الفيلسوف الفرنسي فولتير: إنني قد أخالفك الرأي، ولكني مستعد أن أبذل آخر قطرة من دمي دفاعا عن حقك في أن تقول رأيك.

هذا ما كنت أومن به، وأتطلع إلى تحقيقه.. أن تنتشر ثقافة الرأي والرأي الأخر، دون تجريح أو تخوين أو مزاودة. وقريبا من ذلك عندما حدث الانشقاق المشهور والذي قاده أبو موسى وأبو صالح، كنت ذات يوم في مكتب ماجد أبو شرار الذي وجه كلامه للرجلين قائلا إن أي خلاف يجب أن يكون داخل البيت الفلسطيني، ولا يجوز أن نشهر سلاحنا ضد بعضنا البعض، وحاول ماجد، رحمه الله، أن يقنع الرجلين وأن يعيدهما إلى حظيرة الوحدة الفلسطينية دون جدوى، غاية ما في الأمر أن الخلاف لا يجب أن ينقلب إلى عداء ومواجهة حيث تصوب البندقية الفلسطينية إلى صدر فلسطيني آخر لمجرد الاختلاف في الرؤية أو الرأي.

تاريخ عرفات مفخرة وقدوة لنا.

وتاريخ عزمي الشعيبي مفخرة وقدوة لنا.

ولئن اختلف الاثنان فذلك دليل على ظاهرة صحية ووطنية كما قال ماو يوما:

دع مئة وردة تتفتح.. وأضاف إليها أبو عمار ولكن في حديقة الوطن.

ولنا في التاريخ عظة وعبرة.

ذات يوم قال عمر بن الخطاب: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني.. فنهض إليه أعرابيّ شاهرا سيفه قال:

والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا.

هذه ثقافة الرأي والرأي الآخر، كم كنت أتمنى أن تسود فكر وعقول ومفاهيم أبنائنا سواءً أكانوا من القادة أم من البسطاء.

وقديما قال أحمد شوقي: اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.

وقريبا من هذا ما حدث مع الدكتور عبد الستار قاسم الذي ألف كتابا في ياسر عرفات وملأه بالأكاذيب والأقاويل والتحليلات والآراء السلبية، فلم يعتقله عرفات، ولم يستجوبه، ولم يسأله بل قال له عندما التقاه: إنني أحترم رأيك. ولا أشك لحظة في أن شجاعة وإصرار ومثابرة عزمي الشعيبي على كشف الفساد والمفسدين، كانت تلقى قبولا لدى الرئيس، حتى لو كانت الحملات تتعرض له فعرفات قائد فذ يقدر الرجال والشجاعة. وكان عزمي رجلا وشجاعا.

مسيرة ثائر بين الدراسة والتكوين

مسيرة الدكتور عزمي الشعيبي الحياتية والنضالية منذ عام 1967 حتى الآن حافلة بالأحداث والمواقف، والأشخاص والاعتقالات، والانكسارات والانتصارات، ولكن ذاكرته تتميز بحفظ أسماء تلك النخبة الرائعة من أبناء الوطن الذين اختاروا الجانب النضالي من الحياة ن أجل وطنهم.. إنهم نخبة من المثقفين الرواد الذين نبغوا في الدراسة.. وتطلعوا إلى آفاق الجامعة والعلم والتفوق ومن ثم كرسوا حياتهم وعلمهم وقدراهم وطاقاتهم من أجل وطنهم، من هذه النخبة الرائعة..

الدكتور أمين الثلجي، وعصام البرغوثي، وشقيق بشير البرغوثي، وبسام الصالحي، وحيدر عبد الشافي، ومحمد ملحم، وحيد الحمد الله، ومروان البرغوثي، وحنان عشراوي، وعبد الجواد صالح، وحنا ناصر، وعبد العزيز الحاج أحمد، ونبيل قسيس، وممدوح العكر، وفيصل الحسيني، وياسر عبد ربه، ونبيل شعث، وياسر عمرو، وأمين مقبول، ومحمود فنون، وجورج حزبون، وبسام الشكعة، وكريم خلف وغيرهم. هذه النخبة من المثقفين المناضلين من أبناء الطبقة المتوسطة، ومن أبناء الفلاحين الذين تربوا على قيم وتقاليد القرية الفلسطينية، هم رفاق وزملاء الدكتور عزمي.. يحفظ أسماءهم ووجوههم ويكاد يروي أدق التفاصيل عن مواقفهم النضالية، لأنهم جميعا آمنوا بقضية الوطن.. وجندوا أنفسهم لخدمة هذا الهدف النبيل، مهما كان الثمن، ولأنهم جميعا واجهوا الطغيان والقمع وظلام السجن وبطش السجان.

وللدكتور عزمي مع كل واحد من هؤلاء المناضلين قصة أو موقف أو حكاية، ولكن حكايات (أبو صالح) مع مروان البرغوثي لها خصوصية نادرة ولها تاريخها ودلالاتها وهي مؤشر حقيقي على أن صداقة المبدأ ورفقة النضال تدل على الأصالة وتبين عن مفاتيح وحقائق شخصية كل من الرجلين.

مَن يجرّ مَن إلى الوحل؟

في إطار الخلاف بين المجلس التشريعي والرئيس ياسر عرفات عام 1998، وفي ذروة الحملة لمكافحة الفساد.. قُدم أول تقرير من المجلس التشريعي ضد شخصيات مركزية متورطة.. ولكن الرئيس عرفات رفض أي إجراء لمحاسبة هؤلاء الأشخاص، وبعد مفاوضات طويلة وافق على إعفاء بعض الوزراء، وإعادة تشكيل الحكومة الجديدة.. وألقى الطيب عبد الرحيم كلمة أشاد فيها بتقرير المجلس التشريعي، وأعلن أن الرئيس سيتخذ الإجراءات المناسبة للمحاسبة والإصلاح.

ولكن الرئيس لم يلتزم.

وفي لقاء خاص بأريحا بحضوري وحضور مروان البرغوثي وروحي فتوح، وعزام الأحمد، ومحمد رشيد، وإبراهيم أبو النجا قال الرئيس عرفات:

- ليس هذا وقت محاسبة الفاسدين، وقال إنه سيؤجل ذلك إلى ما بعد نهاية الصراع مع إسرائيل.

ولما لمح على وجهي آيات الاعتراض والرفض قال:

- أنا أعرف عنهم أكثر من هذا الذي تعرفونه.. ثم أردف قائلا مقولته المشهورة: "يا إخواني إننا نريد أن نعدي بهم الوحل".

فقال مروان البرغوثي:

- يا خوفي أن يوقعونا هم في الوحل.

قل لي مَن هم أصدقاؤك أقول لك من أنت

وعندما يتحدث الدكتور عزمي عن مروان تشعر بدفء العلاقة والحب، والتواصل الوجداني الحميم بين صديقين، جمعت بينهما رسالة خالدة، وهي حب الوطن والعمل من أجل خلاصه.. لم تستطع هوية الفصيل المختلفة أن تزرع بينهما أشواك الحقد والخلاف أو الأنانية.

إن الأهداف الوطنية توحد بين الناس، وتربط بينهم برباط المودة والأخوة، فتختفي كل التناقضات العابرة.. ويبقى التناقض الوحيد وهو تناقضك مع العدو.

أرحب بأي خلاف إلا حول الرئيس عرفات

وبعيدا عن أرض الوطن التقيت مع مروان البرغوثي وأمين مقبول، ومحمود فنون في قيادة الانتفاضة وتحت مسؤولية أبو جهاد، وبعد استشهاده، تنقلت قيادة الانتفاضة إلى أن وصلت إلى الرئيس عرفات ومن ثم إلى عباس زكي كنا نعمل كفريق عمل ولذلك، نشأت صداقة خاصة بيني وبين مروان البرغوثي، كنا نتفق ونختلف، ولكننا بقينا أصدقاء.

وفي الواقع فإن مروان شخصية مستقطبة، وموقف الآخرين منه صريح "مع أو ضد".. له أصدقاء، وله أعداء، إنه شخص محوري وإنسان صريح.

وكان دائما يساندني، وكنا دائما نختلف ومن ثمّ نتفق، وكان يؤيدني في كثير من المواقف.. ويقف إلى جانبي في كثير من القضايا مما أختلف فيه مع الآخرين، ولكن عندما يتعلق الأمر بالرئيس عرفات فإنه كان لا يستطيع أن يقدم دعمه أو مساندته لي ويقول بصراحة "إلا الرئيس عرفات".

ويقول الدكتور عزمي الشعيبي: في الجانب الوطني تذوب الفوارق، ولذلك فقد كنا موحدين في قيادة الانتفاضة، كما كنا في المجلس التشريعي.. خضنا أهم معركة حيث ركزنا على الإدارة المالية وتصدينا لمدرسة محمد رشيد التي كانت تحقق هامشا ماليا، ولكن في غياب الرقابة تسيء إلى سمعة السلطة وتمسُّ بالرئيس عرفات نفسه، وعندما فُرض الحصار على الرئيس عرفات في رام الله زار الرئيس المجلس التشريعي وعرض التعاون من أجل ضبط الأمور المالية والأمنية، والتنسيق المشترك بحيث تنسجم الأجندة الفلسطينية الداعية إلى الإصلاح دون أن تخضع للأجندات الخارجية .. فكنا حريصين على التوفيق بين هذين التوجهين على أن لا نقع في أي خطأ.

وعلى ضوء هذه الأجندة صدر القانون الفلسطيني عام 2003، وهو دستورنا اليوم، وأهم ما فيه أن الرئيس هو القائد العام، وأن من صلاحياته تعيين رئيس الوزراء أو إقالته.. وعزز هذا القانون من قدرة البرلمان من جهة وعدل من صلاحيات الرئيس من جهة أخرى، كما أخضع الحكومة للمساءلة.

كان المجلس التشريعي هو الميدان الذي لمع فيه عزمي الشعيبي، فقد كان بلا جدال، فارس المرحلة، وكانت له في كل جلسة أجندة وقضايا، ومواقف مثيرة للجدل، وربما للعداء والتحدي، وقد تواصلت هذه المرحلة في حياته من عام 1996 حتى عام 2005.

لمحات شخصية وإنسانية في حياة عزمي الشعيبي

ولد عزمي صالح محمد الشعيبي يوم 1947/10/20 في مدينة القدس، وهو في الأصل من قرية دير غسانة في محافظة رام الله. كان والده في الأصل صيدليا، يعمل في عين كارم قبيل عام 1948، وبعد حدوث النكبة أصبح مدير إداريا لمستشفى الهوسبيس في القدس.

يقول الدكتور عزمي:

نشأت في عائلة متوسطة تعتبر أنموذجا للعائلة الفلسطينية التي جاءت من أعماق الريف إلى المدينة.. إلى القدس في منطقة وادي الجوز.. وكان عائلتنا تتكون من ستة أفراد، ثلاث بنات وثلاثة أولاد، الفتيات تزوجن قبل مرحلة التعليم الجامعي، أما الأولاد فقد درسن حتى نهاية المرحلة الجامعية أنا وأخي عزت، فقد درستُ طب الأسنان في جامعة الإسكندرية، ودرس أخي عزت المحاماة، وكان أخي عزيز يعمل في مكتب التربية والتعليم في لواء رام الله.

وتمثل أسرتنا الجيل الذي بعد النكبة، فقد اهتم جيل الآباء الذين كانوا يعملون كموظفين حكوميين ببناء الأسرة، وتعليم أبنائهم، بأسلوب غير متزمت ولكنه متمسك بعادات وقيم أبناء الريف.

التحقت في سنوات الصبا الباكر بالمدرسة البكرية في القدس، الواقعة داخل الحرم، ومن ثمّ مدرسة خليل السكاكيني، ثم مدرسة عبد الله بن الحسين في الشيخ جراح.

ثم التحقت بالمدرسة الهاشمية بعد أن انتقلنا للسكن في البيرة عام 1963 وتخرجت عام 1967.

كان مدير المدرسة هو ناظم البيطار.. وكان مدرسا للغة الانجليزية، عُرف بالشدة والحزب، وبأسلوبه وسلوكه الانجليزي، وكانت المدرسة الهاشمية من أهم المدارس في فلسطين.. خرجت أجيالا من المهندسين والأطباء والمحاسبين والنابغين في مختلف القطاعات الحضارية والوظيفية.

هؤلاء علموني

في فترة دراستي في المدرسة الهاشمية تأثرت بثلاثة من المعلمين وهم:

- محمود شقير، وكان يدرسنا اللغة العربية وهو كاتب وقصاص معروف وواحد من كوادر الحزب الشيوعي.
- خليل السواحري، وهو مدرس نبغ في مجال الصحافة والأدب والنقد. كان مستقلا مع ميل إلى الاتجاه الإسلامي.
- الدكتور مصطفى صافي مدرس الكيمياء، وكان من القوميين العرب.

وهؤلاء الثلاثة سجنوا في إسرائيل.. وقد تربى جيلنا وطنيا على أيدي هؤلاء الأساتذة فتشربت منهم كثيرا من القيم والمواقف السياسية وساهموا جميعهم في توسيع مداركي وآفاق تفكيري الوطني والقومي والسياسي، ولا زلت أذكر أن الأستاذ مصطفى صافي كان من خريجي الجامعة الأمريكية ومن دعاة التوجه القومي الذي وجد له صدى عميقا في نفسي.

في جامعة الإسكندرية

في 1967 حصلت على التوجيهي بمعدل 86.1 في المائة. كنت من الأوائل في المدرسة الهاشمية، رغم اهتماماتي السياسية والرياضية، وكان من أصدقاء تلك الفترة أمين الثلجي الذي كان من العشرة الأوائل في امتحان التوجيهي بالمملكة، وعصام البرغوثي شقيق بشير البرغوثي.

من أهم ذكرياتي الجامعية أنني التحقت بحركة المقاومة، وكانت الجامعات مجال منافسة بين الفصائل لاستقطاب وتنظيم الطلبة الفلسطينيين الدارسين في الخارج.

ولما كنت في أثناء الدراسة الثانوية أميل إلى حركة القوميين العرب من جهة، وإلى الحزب الشيوعي من جهة أخرى، فلم يكن صعبا عليَّ أن أختار الجبهة الشعبية الديمقراطية.. لقد حلت لي مشكلة الاختيار والانتماء، فجذورها تعود إلى القوميين، وتطلعاتها شيوعية اشتراكية.

الانتماء من خلال المؤسسات الثقافية والرياضية

عدت إلى أرض الوطن عام 1972، وتواصل عملي في الحركة الوطنية بصورة سرية، ومن ثم افتتحت عيادتي الخاصة في مدينة البيرة.. وأخذت أمارس حياتي عبر أربعة محاور:

* الاندية الرياضية.. فقد كنت رياضيا متفوقا
* لجان العمل التطوعي
* النشاط المسرحي
* نقابة أطباء الأسنان

وفي مجال المسرح أنشأنا فرقة "دبابيس"، ثم أنشأت مع حنان عشراوي ومصطفى الكرد فرقة "بلالين"، وفي مجال العمل التطوعي جندنا العشرات من الطلاب والطالبات الجامعيين وقمنا بفعاليات عديدة متواصلة حتى عام 1976.

وكانت ظاهرة العمل التطوعي فكرة نبيلة لها صداها على المستوى الثقافي والفكري وعمقت ونمت الروح الوطنية والالتزام القائم على العمل والتواضع وروح الجماعة.

وكان المقصود من كل هذه الفعاليات إبراز الهوية الفلسطينية، وتعزيز حضورها الحضاري الذي يعتبر الوجه الثاني للهوية السياسية.

انتخابات عام 1976 .. تحديات ودلائل

وعندما أجريت انتخابات المجالس البلدية قررت المنظمة أن تخوضها ووافقت، فتح والحزب الشيوعي والجبهة الديمقراطية على التنافس ودخول الانتخابات، وقد نجح ممثلو هذه الفصائل بصورة جماهيرية وإجماع شعبي مما يؤكد الحضور الوطني القومي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لجان التوجيه الوطن

وبعد ذلك أصبحتُ عضوا في لجان التوجيه الوطني في مجمع النقابات في بيت حنينا، وكان هذا المجمع هو الواجهة العلنية للإطار القيادة النضالي تقف خلفه الجبهة الوطنية السرية، وكنت عضوا فيها مع بسام الصالحي وحيدر عبد الشافي، ومحمد ملحم، ووحيد حمد الله، وكريم خلف وأبو علام جرار، وبشير البرغوثي، وهاني نصار، وآخرين.

مسلسل الاعتقالات والمطاردة

تعرضت لتجربة الاعتقال المريرة مرات عديدة في الأعوام:

* 1973
* 1978
* 1979
* 1981

وقد وضعت تحت الإقامة الجبرية في البيرة، وكنا نذهب كل يوم إلى مركز الشرطة لإثبات وجودنا، وهذه الفترة وافقت كما تذكرين فترة وضعك تحت الإقامة الجبرية في البيت في رام الله.

وفي عام 1985 تم إبعادي إلى وادي عربة في الأردن.

العودة إلى الوطن

صادفت عودتي إلى الوطن قبيل عقد اتفاقية أوسلو بمدة قصيرة. فقد عدت ضمن عدد من قدامى المبعدين، بلغ عددهم 30 ومنهم: فايق وراد، وعبد الجواد صالح، وحنا ناصر، وعبد العزيز الحاج أحمد وآخرون. ثلاثون شخصية تم اختيارهم من قبل الرئيس عرفات، وكان لذلك قصة طريفة تدل على ذكاء وحنكة ياسر عرفات.

بين عرفات ورابين مباراة في الذكاء والدهاء

وفي حين كانت تجري مفاوضات علنية في واشنطن برئاسة حيدر عبد الشافي كانت هناك مفاوضات أخرى تجري في أوسلو بصورة سرية.

وعندما شعر الوفد الفلسطيني بعدم جدوى المفاوضات وخاصة بعد أن أبعدت إسرائيل أربعمائة فلسطيني من قادة الحركة الإسلامية- حماس إلى مرج الزهور قرر حيدر عبد الشافي أن ينسحب الوفد ويجمد المفاوضات، ومن ثم تم الاتفاق بين عرفات ورابين على أن يقوم الرئيس عرفات بصفته مرجعية الوفد لإعادة الوفد للمفاوضات العلنية مقابل عودة ثلاثين شخصية فلسطينية من المبعدين يقوم عرفات باختيارهم.

ونجح عرفات بأسلوبه الخاص في إعادة حيدر عبد الشافي والوفد الفلسطيني إلى مائدة المفاوضات، ومن ثم تم السماح لنا بالعودة إلى أرض الوطن لنستقبل بحفاوة وحب، ومظاهرات النصر والتأييد، ما جعلنا على يقين من أن شعبنا يستحق التضحية والفداء.

وبعد فترة من عودتي تم استدعائي إلى تونس وبعد أوسلو تم اختياري كعضو في المجلس المركزي وكلفت من عرفات بتأسيس أول وزارة للشباب والرياضة وكان ذلك عام 1994.

مع الرئيس حوار لم يتواصل

عملت مع الرئيس ياسر عرفات من عام 1994 حتى منتصف عام 1996 وكانت تجربة فيها الحلو والمر ولكن لم يكن هناك انسجام بيني وبينه في الإدارة ما أدى إلى حدوث صدام داخلي، كان الأصدقاء يتدخلون لإزالة أسبابه.. وكان من هؤلاء الأصدقاء نبيل شعث، ياسر عبد ربه، ياسر عمرو، فيصل الحسيني.

وعندما أُعلنت انتخابات سنة 1996 وجدتها فرصة مواتية فاستقلت من السلطة وخضت الانتخابات كشخصية مستقلة مع قائمة ضمت أشخاصا من حركة فتح ومن خارجه وكان على رأس هذه القائمة مروان البرغوثي.

نجحت في دخول المجلس التشريعي وعملت مع آخرين على تحقيق قانون أساسه النظام البرلماني في الرئاسة في حين كان عرفات يسعى إلى النظام الرئاسي على نحو النظام المصري. وفي عام 2003 صدر القانون الفلسطيني الذي يقوم عليه الدستور الذي نعمل به اليوم.

جندياً في مؤسسة نشر العدالة ومحاربة الفساد

ويقول الدكتور عزمي في حملاتي المتواصلة ضد الفساد في المجلس التشريعي، وقفت على حقائق ووقائع مؤلمة ووضعت يدي على جراح الشارع الفلسطيني خاصة وأننا شعب محدود الإمكانات ويتطلع إلى الديمقراطية والعدالة ودولة المؤسسات.. واكتشفت أن يدا وحدها لا تصفق، وان العمل المنهجي المدروس القائم على المثابرة والاجتهاد والمحروس بمواد القانون والمنطق والمزود بالوثائق والأرقام والصور لا بد أن ينتصر. ومن هنا ولدت مؤسسة "الائتلاف من اجل النزاهة والمساءلة- أمان" عام 2000. وكان الدكتور عزمي ولا يزال هو المنسق العام لهذه المؤسسة التي يدل اسمها على هويتها ونشاطاتها ويكفي أن من أعضائها المؤسسين: حنان عشراوي، وزياد أبو عمرو، وكمال الشرافي، وخليل الشقاقي، وغسان الخطيب.

القاضي والجلاد في عش الدبابير

ولا شك أن هذه النخبة من الشخصيات تشكل عنوانا حيويا هاما للتصدي للفساد.. ورصد مظاهره ومعرفة مواطنه، وهي شخصيات على جانب كبير من الثقافة والنضج والوعي السياسي، وتعرف أن أمانة المرحلة وحساسيتها تتطلب الشجاعة والمواجهة والتصدي لان مشروعنا الوطني متوقف على مدى ما نتمتع به كفلسطينيين من شفافية وقدرة وكفاءة.. ولان (المساءلة) يجب أن تكون حقيقية وملموسة وفاعلة ولها نتائجها، فلا يكفي أن نسمع ونقرأ في كل يوم عن سرقات بالملايين، وعن وزراء وقادة ومتنفذين خانوا الأمانة ولكن أحدا لا يتصدى لهم (بنزاهة) ولا يضعهم تحت سيف المساءلة.

لقد اختار عزمي الشعيبي كعادته أكثر المواقع حساسية وخطورة واقتحم عش الدبابير والأفاعي ومضى مقاتلا بشراسة ووعي وثقافة ومؤازرة فريق مميز لاحتضان الحق ونصرة الجماهير حتى لا تتحقق تلك المقولة المؤلمة (إن الثورات يصنعها الفقراء ويسرقها الانتهازيون).

عزيزي عزمي..

كان تاريخك صفحات مشرقة وضاءة، وكانت مواقفك تشهد بالشجاعة والرجولة والالتزام.

وأنت الآن في موقع القاضي والجلاد والحكم لمطاردة أعداء الحق والخير والجمال وهم كثيرون، داخل الوطن وخارج وفي طليعتهم جحافل البغي والعدوان الذين يسرقون أرضنا ويحتلون ماءنا وهواءنا وخبزنا دون مساءلة أو عقاب فامضِ في طريقك تحرسك عيون وسواعد وقلوب الجماهير التي أحبتك دائما وباركت خطاك على درب الحرية والعدل والديمقراطية.

لقد تصديت يوما لرموز وطنية كبيرة، وغامرت في التعرض لوزراء وقادة ومتنفذين بكل شجاعة وجرأة، وهذا ما يجعلك في مرمى النيران هدفا لجنود البغي والعدوان.. فهل تصمد؟ وهل تظل رافعا اللواء.

(2012/6/1)

الدكتور محمد سليم الوحيدي

حاصروا بيتي تمهيداً لنسفه فاتصل أبو عمار برابين

الذي قال له: "فات الميعاد"

وهبتُ العمل الوطني زهرة شبابي

وأنجبت ثلاث مناضلات: عبير، وغادة، وسحر

أنحني إجلالاً أمام الأسرى والشهداء،

فهم جنود الحق في مسيرة الثورة الفلسطينية

في فترة الاحتلال الإسرائيلي ظهرت قيادات فلسطينية فرضت وجودها على الساحة بشخصيتها الوطنية القومية وعروبتها، وكانت هذه الشخصيات تلعب دورا هاما للتصدي للظروف القاسية التي يشكلها الاحتلال ومن ثمّ مقاومة كل توجهات الاحتلال. ومن هذه الشخصيات كان الدكتور الوحيدي. فهو من أوائل الناس الذين رسخوا الهوية الوطنية الفلسطينية وأقام مع المثقفين لجنة التوجيه الوطني لتكون سدا منيعا ضد الذين كانوا يقفون ضد منظمة التحرير.

وعمل الدكتور الوحيدي مع رفاقه لانتصار صوت الحق، وإعلان الولاء لمنظمة التحرير في ظروف دقيقة كانت تمر بها المنطقة عبر تدخلات القوى الخارجية لإفشال النضال الفلسطيني الذي تمثله منظمة التحرير.

مواقف وطنية لا تنسى

ومن مواقف الدكتور الوحيدي الرائعة إيمانه بالقدس. فقد كانت القدس هاجسه وكان يصر على أن تظل جميع اللقاءات الوطنية الفلسطينية في القدس، وأراد بذلك أن تكون القدس مركز' للنضال الفلسطيني، وللقاءات الفلسطينية لأنه كان يقول لنا دائما دعوا لقاءاتنا تكون في القدس سواء في مكتبنا المكتب الفلسطيني ومجلة "العودة" أو في مكتب طارق زكي أو في مكتب فيصل الحسيني أو في الفندق الوطني، وذلك كله كرد فعل على الممارسات الإسرائيلية التي كانت تشكل تهديدا لهوية مدينة القدس والتي ما زالت تعيش بخطر التهويد الكامل.

ومن جهة أخرى، فان عقد الاجتماعات في القدس يسهل على الصحافة الإسرائيلية والعالمية أن تأتي لتغطية هذه المؤتمرات ومن ثمّ إعطاء صورة للعالم عن مدى أهمية القضية الفلسطينية وتدويلها من خلال تدويل قضية القدس وعدم فصل قضية القدس عن القضية الفلسطينية.

الحركة الوطنية كانت متمثلة من خلال شخصيات وطنية قومية غير راديكالية. القدس كانت دائما في الصدارة والواجهة.

ومما أذكره أن مستشار الحاكم العام للضفة الغربية إيغال كرمون كان يقول عن الدكتور الوحيدي: "هذا الرجل البدوي الأصيل رجل صادق صريح بمواقفه وثباته ونضاله من أجل قضية شعبه" وثم يضيف: "رغم أنه عدوي ولكني أحترم هذا العدو الشرس صاحب المبادئ".

عرفتُ الدكتور محمد الوحيدي مناضلا صاحب رأي وموقف، ورجل حسم في مختلف القضايا النضالية، كان دائما واضح الرأي واضح الرؤيا يعبر بصدق وأصالة عما يراه حقا ولا يتراجع بسهولة، وكان دائما على رأس جميع المناسبات ومختلف النشاطات والفعاليات الوطنية والاجتماعية وفي كافة الاجتماعات التي تخطط وترصد للحركة الوطنية .

وأعرف أن الدكتور الوحيدي إنسان متواضع، لا يبحث عن الأضواء ولا يحاول لفت الأنظار وكان يساعد المحتاجين والفقراء والمناضلين وخصوصا عندما كان مديرو وكالة الغوث. كان معروفا في كل المخيمات الفلسطينية وأجواء اللاجئين. فكان يمد لهم كل الحب والتقدير والاحترام ويمدهم بكل ما يحتاجونه من مسكن ودراسة ومساعدة إنسانية وطبية وغيرها من المساعدات ولا يغلق بابه في وجه أي إنسان مهما كان. وكان صوت منظمة التحرير في الداخل وصوت المعذبين في الأرض واللاجئين لأنه لاجئ فقد أرضه ووطنه. وكان إحساسه مع أبناء شعبه وكانت عاطفته دائما معهم وكان يذرف دمعا عندما يرى المآسي أمامه .

الأم الفاضلة .. المناضلة العظيمة

لا ننسى الأم ميسون الوحيدي، الأم العظيمة المناضلة التي تحملت المآسي من سجن ابنتها عبير وغادة ونسف بيتهم وسجن زوجها. لم تستسلم. ولكنها درست دراسة جامعية وحصلت على درجة الماجستير في الإدارة التربوية من جامعة بيرزيت وكتبت عدة كتب ومن كتبها تاريخ نضال المرأة الفلسطينية في النصف الأول من القرن العشرين الذي لم ينشر بسبب ضياع المسودة الأولى لهذا الكتاب عندما نسف البيت، ومن الكتب التي نشرت المرأة الفلسطينية تحت الاحتلال الإسرائيلي وكتاب أطفال الانتفاضة وكتاب الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الأطفال الفلسطينيين وصدر باللغة الانجليزية وكتاب الآثار النفسية لهدم البيوت على الأطفال في رفح، وأصبحت وكيلاً مساعداً في وزارة الشؤون الاجتماعية. إنها امرأة فاضلة، مناضلة وجميلة من أجمل النساء عاشت ظروف قاسية عندما اعتقل زوجها وثم نسف بيتها واعتقلت ابنتاها ولكن عزيمتها دائما قوية وصلبة رغم نزع الفرح من قلبها.. لم ينتزع حبها للناس والعطاء، لم تستسلم ميسون لليأس.

بعيداً عن الأضواء على عكس القاعدة

لقد وجدت صعوبة في أن أحاوره وأنا أحاول أن أرصد صفحات من تاريخ الثورة عبر التوقف عند شخصيات هامة إذ قال لي بعفوية وصدق:

لست أول من نُسف بيته، ولست أول أو آخر من اعتقل، ولست أول من حملت ابنتاه راية الجهاد.
فقلت له:

ليست هذه ساعة للتواضع وإنكار الذات، نحن أمام محاولة لتوثيق أحداث الثورة بصورة لا يأتيها الباطل وتغيب عنها سحب المجاملة وأضواء التلميع، نحن أمام حقائق وأنا كشاهدة على التاريخ والأحداث لا بد أن أقف أمام الحقائق الثورية والنضالية التي يمثلها محمد الوحيدي الذي كان دائما صوتا من أصوات المنظمة وشريكا فاعلا في كل توجه وطني أو قومي، كما كان مساهما حقيقيا في حل مشاكل الجماهير وإصلاح ذات البين وتقديم المساعدات لأبناء شعبنا بحكم عمله (مديرا لوكالة الغوث في المحافظات الوسطى) أو بحكم عمله في القيادة الوطنية.

والحق أقول إن ظلما لحق بالأخ الصديق، فلم يتم إنصافه ولم يأخذ الموقع القيادي الذي يستحقه بفعل تجاربه وتاريخه ونضاله، ولكن ذلك لم يؤثر في معنوياته ولم يبعث المرارة في نفسه ورضي بأن يكون شاهدا على مسيرة الثورة الفلسطينية من موقع المراقب الذي صنع الأحداث ووقف يراقب الصفوف.

بتواضع شديد، وعفة، ونزاهة الثائر الحقيقي يستذكر معي الدكتور الوحيدي صفحات من تاريخ حياته.. كمناضل وكإنسان وأب لمناضلتين اثنتين سجلت كل منهما صفحات رائعة من البطولة في سفر الثورة الفلسطينية.

يقول الدكتور محمد: إن التوثيق الذي تقومين به يا سيدتي.. ضروري جدا، وهام جدا وسيذكر لك على امتداد تاريخك النضالي والإعلامي لأننا في حاجة ماسة إلى كشف الحقائق وتوضيح أبعاد الصورة.. لنبين عن العناصر الأصيلة المناضلة في مسيرتنا.. وفي نفس الوقت فإننا نضع الحقائق أمام الشعب ليعرف الماء من السراب، والقمح من الزوان، والحق من الباطل.

كلهم إخواني

وينفعل الدكتور محمد الوحيدي.. وهو يحاول أن يسيطر على نبرات صوته، ويداري دمعة حائرة تتألق في عينيه وهو يقول: الأسرى.. هم الأبطال الحقيقيون الذين يجب أن تتوجه إليهم كافة الأنظار، هم الجنود المدافعون عن حرية شعبنا، وهم الذين ينزفون دما ودمعا وجراحا وراء القضبان.. هم الذين يستحقون أن نكتب عنهم وفيهم، وأن نبذل كل جهد مستطاع لنمنحهم الأمل والبسمة.. ولنخفف عنهم عناء ذلك الليل الطويل.

والشهداء.. أخواني الشهداء.. أني أترحم عليهم.. وأذكرهم بكل فخر واعتزاز.. فهؤلاء قالوا كلمتهم بالدم.. وحملوا أرواحهم على أكفهم.. وقاتلوا.. وبذلوا دماءهم.. ليروى ثرى هذا الوطن العزيز.. هؤلاء.. هم طليعة شعبنا.. ورواد حريته وغده المشرق.

خُلق الحزم أبكماً

في حياة الدكتور محمد الوحيدي مواقف وحكايات وقصص وبطولات.. تحتاج إلى العرض والتأمل والتوقف لاستنطاقها.. ومحاورتها.. والوقوف على ما فيها من مواقف ودروس وعبر.

في جامعة القاهرة.. التقى بصديق عمره هايل عبد الحميد وجمعهما طريق النضال.. في حركة فتح.. ومن ثم في تنظيم "العاصفة"، سكنا معا في القاهرة.. وتزاملا في فترة من أخصب فترات حياتهما.. تلك الفترة الرائعة في حياة الشباب عندما كان يكرس كل طاقاته للدراسة الجامعية من جهة، وللحركة الوطنية من جهة أخرى

ما جدوى الحياة بلا قضية

يقول الدكتور الوحيدي: ما نفع الدراسات الجامعية والشهادات، والثقافة، والتعليم.. إذا لم تؤجج في وجدانك تلك الشعلة المقدسة.. للثورة والنضال من أجل قضية بلادك. كنا أنا وهايل عبد الحميد.. نعمل في هذا الاتجاه ومن خلال اتحاد الطلبة الفلسطينيين بالجامعة.

إن إتحاد الطلبة الذين فزت بعضويته.. قد وضعني على الطريق الصحيح لتبني قضايا الوطن والنضال من أجل حريته.. كان علي أن أنجح في دراستي، وأن أشق مستقبلا لي ولأسرتي.. وأن أكون جديرا بعائلة الوحيدي التي تحتل مكانة رفيعة في بئر السبع.. وكان عليّ أن أرفع الراية وأتقدم الصفوف.. مناضلا حقيقيا لا يرجو الا إعلاء كلمة وطنه ورفع راية الحرية فوق روابيه وهضابه.

قافلة الثورة والعمل النضالي

كنت عضوا عاملا في الجبهة الوطنية، وهي عبارة عن تشكيل يتكون من حركة فتح، والقوميين العرب والشيوعيين، وشخصيات وطنية بارزة أخرى، مثل الأخت سميحة خليل، وكريم خلف رئيس بلدية رام الله، والقس عودة الرنتيسي، وبشير البرغوثي، وعبد العزيز الحاج أحمد، ومحمد ملحم، وإبراهيم الدقاق، وحيدر عبد الشافي، وبسام الشكعة، وغسان الشكعة، وعدد لا بأس به من الشخصيات الوطنية التي كانت تعمل في نطاق من السريّة، والتي وهبت نفسها للعمل النضالي في صمت وإخلاص ومنهم مأمون السيد وأكرم هنية.

يقول الدكتور الوحيدي:

وكان من بين المناضلات العاملات الأخت ريموندا، حيث جمعتنا مسيرة نضال امتدت أكثر من عشرين عاما.. على مختلف الأصعدة الوطنية والسياسية والاجتماعية والإعلامية. وكنا دائمين مقربين من الرئيس عرفات.

التفاوض.. والطعن من الخلف

ذات يوم كان فيصل الحسيني مدعواً إلى بيتي في الماصيون برام الله، وكان برفقته الدكتور احمد الطيبي عضو الكنيست العربي المعروف، ومديرة الوكالة جين برت أندرسون.. التي أصبحت فيما بعد وزيرة في بلدها.

وقد ضربت القوات الإسرائيلية حصارا محكما حول البيت قبل نسفه، وفي هذا الوقت بالذات حيث كان الوفد الفلسطيني مجتمعا مع الوفد الإسرائيلي في القاهرة، ولما علم أبو عمار بذلك اتصل برابين يطلب منه وقف عملية الهدم.. ولكن رابين قال له:

Its too late ... لقد فات الميعاد.

وتم نسف البيت عن بكرة أبيه.

ذاك الشبل من ذاك الأسد

لم أصدم عندما تم اعتقال ابنتي عبير الطالبة في كلية الهندسة بجامعة بيرزيت.. إنها كبرى بناتي، وأنا أعتز بها، وبتجربتها النضالية الفريدة، أنني أتشرف بأن أكون أبا لها، وأرفع رأسي عاليا فخورا بها. وأذكر.. كم كانت شجاعة صامدة متماسكة عندما هدموا بيتي.. لقد وجدت في ثباتها وصلابة موقفها وهدوئها ورصانتها ما عزز في نفسي مشاعر الثبات والتحدي والكبرياء الوطني والعزة والإباء.

ثلاث زهرات في حديقة الوطن

عبير صورة مشرفة للمناضلة الفلسطينية الملتزمة، أمضت في سجون الاعتقال خمس سنوات.. تخرجت من كلية الهندسة، وهي تعمل الآن في الأمانة العامة في رئاسة الوزراء.. ولا يزال بقايا رصاص جنود الاحتلال في جسدها حتى الآن.

أما أختها الأصغر منها- غادة، فقد اعتقلت عدة مرات، ولا زالت تعاني من وجود رصاصة في رجلها اليمنى أثناء مشاركتها في فعاليات الانتفاضة الأولى.

لقد أدهشني الدكتور الوحيدي وهو يروي هذه الأحداث الدراماتيكية العنيفة التي تفجر الصخر خاصة وأن الذي يرويها هو الأب المناضل.

كان صوته هادئا رزينا.. لا تلمح فيه رنة فخر أو سمات زهو أو اعتداد.. كان طبيعيا.. سلسا.. هادئا ولكن صوته يكتسي بملامح الغضب والثورة عندما يتحدث عن أولئك الذين يركبون موجة الثورة.. ويتسلقون من أجل المناصب والثراء والسلطة. هذا النفر الوضيع من أنصاف الثائرين من الذين يحاولون خطف الأضواء بالافتراء والتهريج والافتعال.

الجامعيون.. يد تحمل الكتاب ويد تحمل السلاح

يقول محمد الوحيدي مستذكرا شريط حياته:

لا تتوقعي مني تفاصيل وحكايات مسلية، إن شريط حياتي أنموذج معروف.. اللاجئ الذي طرد من وطنه.. فكان عليه أن يتعلم ويشب- ويكبر ليحمل البندقية ويقاتل.

هذه المقولة تلخص حياة أجيال من شباب ثورة المثقفين الذين درسوا في الجامعات.. تعلموا وتثقفوا.. وسعوا إلى بناء حياة سوية لها جانبان.. الجانب العلني في دنيا الوظائف والأعمال والجانب الخفي.. المكرس للنضال والمقاومة.

ثم يقول في عفوية وبلهجة ملؤها المودة:

أنت تقومين بدور توثيقي خطير وهام.. فأنت ترصدين خطوات شباب الثورة المثقف.. المحامي فؤاد شحادة، والدكتور غازي حنانيا، والدكتور عزمي الشعيبي، والأخت جانيت، والأخ كامل جبيل، والمناضل فخري البرغوثي وغيرهم.. وبهذه الصفحات القليلة تغرسين بذرة طيبة لأعمال توثيقية لا بد أن يضمها كتاب في يوم من الأيام.

ابن شيخ القبيلة

ولد محمد سليم الوحيدي عام 1937 وكان ميلاده في بئر السبع لأب كان شيخا من شيوخ القبائل في بئر السبع.. وكانت له أملاك واسعة، وكان يشتغل في الزراعة وفلاحة الأرض.

كان والدي من علية القوم.. ومن مشايخ البدو في بئر السبع، وكان وضعنا المادي جيدا.. فوق المتوسط، وكان لأبي ثلاثة أبناء وهم: الشيخ موسى الوحيدي.. رجل الإصلاح، والأخ الثاني علي.. وهو متقاعد، والثالث هو الدكتور محمد الوحيدي.

خيَّمنا قرب أرضنا لعلنا نعود

يقول الدكتور الوحيدي:

أنا ابن المخيمات.. ابن اللجوء.. في حياتي تتجسد جريمة العدوان والبغي.. كأوضح ما تكون.. فبعد أن كنت ابن شيخ القبيلة.. ومن أصحاب الأراضي والجاه.. والثراء فجأة.. أجد نفسي مشردا خارج وطني.. أضرب في الآفاق مع أبناء أسرتي وأخوتي..

اكتويت بمأساة عام 1948.. شربت مرارة التشريد.. وعايشت كل ألوان الذل والهوان مع أبناء أسرتي ومع جموع الفلسطينيين المشردين في الآفاق.

ذهبت في سنوات الصبا الباكر إلى مدرسة عراق المنشية.. وإلى مدارس الخليل.. سكنت المخيمات.. وأقمنا في مخيم العروب. وقد رفضنا أن نحط رحالنا بعيدا عن حدود الوطن. كان الأمل يراودنا بأننا سنعود إلى فلسطين، ولذلك يجب أن نكون قريبين.

كثير من الأقارب، والعشائر الأخرى سكنت في مناطق الخليل، ومخيمات أريحا، ومخيمات بيت لحم. أما أنا وإخوتي.. فقد بقينا في مخيم العروب.. وبعدها لجأت إلى رام الله.. وكان ذلك في سنوات الخمسينيات.

درست المرحلة الثانوية في بيت أمر.. ثم التحقت بجامعة القاهرة لدراسة الطب البيطري وتخرجت في العام 1967.. ثم التحقت بوظيفة في وزارة الزراعة، وعلى أثر مجيء الاحتلال أصدر الحكم العسكري الإسرائيلي قرارا يلزم فيه جميع الموظفين بالعودة إلى مزاولة أعمالهم.

ذكريات النضال الطلابي

في أثناء الدراسة في المرحلة الثانوية كنت أمارس النشاط الوطني من خلال المدرسة، وقد أنشأنا أول اتحاد لطلاب فلسطين في منطقة الخليل، وكان ذلك عام 1957.. وكان يضم القوميين العرب، والشيوعيين حيث كنت عضوا في الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وكان ذلك في فترة المد الناصري الثوري الذي كان يكتسح العالم العربي، وفي فترة حكم سليمان النابلسي المعروف بتوجهاته القومية ومواقفه الوطنية.

في جامعة القاهرة مع هايل عبد الحميد

من أعز ذكرياتي وأكثرها تأثيرا في حياتي أنني عندما كنت في السنوات الأخيرة في الجامعة.. انضممت إلى مجلس اتحاد طلبة فلسطين في القاهرة، وقد نسَّبني إلى حركة فتح صديق عمري الأخ هايل عبد الحميد الذي كان طالبا معنا في الجامعة. ومن ثم ربطت بيننا أواصر صداقة وزمالة وثقة، وجمعتنا رغبة وطنية

جارفة في العمل والعطاء. وفي هذه الفترة الخصبة من حياتي والحافلة بالذكريات، سكنت مع هايل لمدة سنة، وعن طريقه أصبحت عضوا في العاصفة، وعندما أجريت انتخابات اتحاد الطلبة أذكر أنه تشكلت ثلاث كتل وهي:

* كتلة الريماويين، عبد الله الريماوي
* كتلة القوميين العرب
* وكتلة المستقلين وعلى رأسها هايل عبد الحميد وأنا

وقد نجحت في الانتخابات في حين سقط هايل عبد الحميد.

العودة إلى الوطن

بعد أن أنهيت دراستي التحقت بالعمل في وزارة الزراعة.. وعندما جاءت السلطة.. لاحظت بأسى.. كيف تغيرت الأحوال وكيف اندثر بعض الوطنيين، وكيف ركب الموجة آخرون.. ولكن هذه هي الدنيا، وهذا هو دولاب الحياة.. ودوام الحال كما يقال دائما من المحال.

***

هذه المرارة التي نلمحها في حديث الدكتور الوحيدي، لم تؤثر على معنوياته فهو كما عهدته دائما ضاحكا ساخرا متفائلا، يوزع ابتساماته وتعليقاته الطريفة على كل من حوله. ورغم ما يعانيه من آلام جسدية وأمراض إلا أن حبه للحياة أقوى من كل المحن

وفي فترة الاحتلال.. عدت إلى ممارسة عملي في الوظيفة.. وفي 1975/7/15 تم اعتقالي ووجهت إلى تهم عسكرية منها:

- إنني كنت أحد أعضاء اللجنة الوطنية، بل ومن مؤسسي هذه اللجنة، وأنني كنت ممثلا لحركة فتح في الضفة الغربية.
- ووجهوا إليّ تهمة العضوية في "العاصفة".
- واتهمت بأني أخطط لنسف مقر الحكم العسكري في بيت إيل.
- كما اتهمت بأني أمثل حركة فتح في الضفة الغربية.

وهكذا أمضيت في المعتقل سنتين، وفرضت عليّ الإقامة الجبرية ثلاث سنوات.

ذكريات مع الرئيس أبو عمار

ويقول الدكتور محمد الوحيدي: ترتبط بالرئيس عرفات وشائج مودة وصداقة.. فبعد خروج منظمة التحرير من بيروت ذهبت إلى تونس مع اثنين من الأصدقاء وكان ذلك بتاريخ 1982/10/30.. وكان هناك بعض الإخوان الذين ذهبوا لتهنئة الرئيس وخروجه سالما من حرب بيروت التي استمرت أكثر من ثمانية وثمانين يوما. وفي حصار الرئيس في المقاطعة.. كنت أتردد لزيارته ضمن عدد من الرفاق والأصدقاء.. وفي الحصار والأزمات تبين حقائق الرجال وتظهر معادنهم.. وقد آمنت دائما بأن عرفات قائد تاريخي.. وإنسان.. وأنه تجتمع فيه مقومات الزعيم العالمي بكل المفاهيم.

مخالفا شروط الحصار

وحول ذكرياته مع الرئيس عرفات يروي الدكتور محمد الوحيدي هذه الواقعة:

الزمان: أحد أيام شهر آذار من عام الحصار.. عام 2002

المكان: أحد دهاليز المقاطعة

على بعد أمتار قليلة.. يتناثر الجنود الإسرائيليون بأسلحتهم النارية

في عيونهم قلق

وفي أعماقهم رغبة وتحفز وعدوانية تدعو للتحدي.. والتصدي.

كانوا يشعرون بأنهم هم المحاصرون، وليس الرئيس وجنوده ومعاونوه، ومن تصادف من زواره في هذا اليوم الأغر من أيام شهر آذار، عندما حاصرت الدبابات مقر الرئيس في المقاطعة بقوة النيران.

وكان أقسى ما في هذا الحصار، وأمرّ ما فيه أن أكثر من سبعين شخصا، أصبحوا محاصرين، في منطقة محدودة خلف جدران وأطلال المقاطعة المهدمة.

بلا ماء

ولا طعام

ولا كهرباء

ولا مرافق

كل من يتحرك، يكون في متناول الرصاص الإسرائيلي

الموت يترصد كل إنسان يجرؤ على أن يطل من نافذة، أو شباك، أو فتحة صغيرة.

وأصوات الناشطين السياسيين، تنطلق من هنا وهناك، تحاول أن توقظ الصخر المتحجر في ضمائر عساكر تبلدت مشاعرهم، وغابت مفاهيم الإنسانية عن وجدانهم، وأصبحت قلوبهم كالصخر أو أشد صلابة.

في أحد دهاليز المقاطعة جلس اثنان من رفاق الرئيس:

الدكتور محمد الوحيدي

وطارق زكي

كان أمامهما، كأس لبن، وعلبة سردين، وبعض البصل وقليل من الأرغفة.

لمحهم الرئيس.. فاتجه إليهما.. ولما شاهدهما، وتأمل ما يأكلان قال:

- لونان من الطعام..؟ هذا مخالف لقوانين الحصار.

قال الدكتور محمد الوحيدي مدافعا عن نفسه:

- أنا لا آكل السردين.

وقال طارق زكي:

- وأنا لا آكل اللبن.

يقول الدكتور محمد الوحيدي:

وتناول أبو عمار لقمة.. أو لقمتين معنا، ثم مضى يتفقد بقية القبيلة المحاصرة التي تعاني من شظف العيش خلف أسوار المقاطعة، حيث يترص بالجميع شبح الجوع والموت والرصاص والنار.

عزيزي الدكتور محمد الوحيدي..

إنني أُكبر فيك هذه الروح المتواضعة التي تسمو دائما فوق الأنانية والذاتية، وتنأى بعيدا عن النرجسية والفردية، فأنت لشدة ما عانيت في حياتك وقاسيت، وشربت من كأس العذاب المزدوجة.. أعني الاعتقال والشهادة بل إنك عانيت كذلك من ثالثة الأثافي عندما تعرض بيتك للنسف أمام أصدقائك وضيوفك، وعلى مشهد من أبناء شعبك..

الاعتقال

واعتقال عبير

واعتقال غادة

أربعة من أفراد عائلتك.. عايشت معهم قسوة الجلاد وبطش العدو.. ومع ذلك.. فانك تمر بهذه الأحداث الخطيرة المؤلمة.. مرا عابرا وترى في ذلك.. ضريبة مستحقة نحو فلسطين وثمنا زهيدا من أجل حريتها.

كم أُكبر فيك هذه الروح النضالية الرائعة..

وأنت تقول.. إني لاجئ.. نشأ في المخيمات وتربى بين أبنائها.. رفضت أنت وأسرتك وإخوتك أن تستوطن في أنحاء الضفة وبقيتم في مخيمات اللاجئين.. تحلمون بالعودة إلى فلسطين.. ولما طال هذا الانتظار.. وأوشك الحلم أن يغدو سرابا.. درست.. وتعلمت.. وكنت من تلك الصفوة التي حصلت على الدرجات الجامعية في فترة مبكرة من حياتك.. فلما تم لك ذلك.. خرجت إلى آفاق الحياة العملية.. وفي يدك شهادة، وقسم وعهد.

وهذا هو الطريق الصحيح إلى القدس.. إن تحرير فلسطين يمر من فوهة البندقية كما كان يقول الرئيس عرفات.. ولكن هذه البندقية يجب أن تكون في حراسة العلم والتخطيط والذكاء بعيدا عن العشوائية والاندفاع..

أما صداقتك للرئيس عرفات.. فأنا أعلم الناس بها.. ولكنك.. تحرص على أن تظل هذه الصداقة في طي الكتمان.. ولا ترى في ذلك مجالا للزهو والتسجيل، فإن صداقة الثوار أمر طبيعي.. وصلة التواصل على طريق المبادئ أقوى من صلة التواصل على طريق النسب.. وخير شاهد على هذا.. تلك العلاقة الحميمة التي ربطت بينك وبين هايل عبد الحميد أثناء الدراسة الجامعية.

أخي أبا ياسر..

عادت السلطة إلى أرض الوطن.. وتفحصت ملفات الثائرين والمناضلين.. ووضعت كثيرين في مناصب حساسة.. وبذلت لهم المراكز والنفوذ والمال.. وحاولت أن تضع الرجل المناسب في المكان المناسب.. فوفقت حينا وفشلت أحيانا وبقيت بعيدا عن الصورة.

فلم يغير ذلك من ولائك، وحبك، وإيمانك.. وبقيت كما عرفتك دائما الإنسان المتواضع المرح.. الذكي اللماح.. المقبل على الحياة.. المبتسم أبدا.. والذي لا تفارقه روح الدعابة والسخرية.. مهما كانت الظروف حالكة.. وهذه اللمحات في شخصيتك عرفتها طوال ثلاثين عاما أو أكثر.. وهي من سمات الكبار الذين لا تتحطم ولا تنكسر شخصياتهم أمام المصائب وأهوال الأحداث.

وأنت في ذلك تلتقي مع الرئيس عرفات.. فإن كل المآسي التي كانت تقابلكم.. لم تستطع أن تمحو ابتسامة التفاؤل.. وسخرية القائد.. وحلم وسعة صدر الإنسان الكبير.

(2012/6/8)

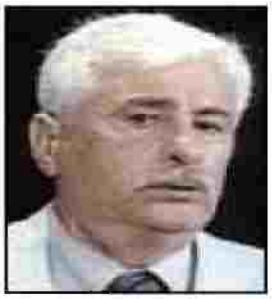

عبد الجواد صالح

آمنت دائماً بنشر ثقافة المقاومة القائمة على روح الجماعة وفقه المؤسسات

ألقت النكبة بظلالها فوقفت أمي تعمل في الأرض لتعولنا

عرض عليّ الملك الوزارة.. فاعتذرت

أرسل إليّ عرفات قصاصة فالتحقت بالثورة

أحد المتنفذين في وزارة الزراعة يسرق 6.5 مليون دولار.. قدّمت ما يُدينه..

ولكنهم قالوا لي: إنسَ

كانت لعبد الجواد صالح مدرسة خاصة في المقاومة السلمية، وكان له تأثير كبير على جيل بأكمله. أذكر جيدا بعد عام 1967 أن عبد الجواد صالح كان المحرك الثائر للجماهير، وكانت له صورة المناضل الذي كان دائما بلباسه الكاكي على طراز شي جيفارا وكاسترو، وكان ممشوق القامة، وسيما، رياضيا وكان حاسما وحكيما وصاحب قرار. لم يكن رئيس بلدية البيرة فقط ولكنه كان قائدا سياسيا لكل الضفة الغربية، وكان يشارك في التظاهرات، وجنازات الشهداء، والمسيرات الجماهيرية، وكان قوة شاحنة للشبيبة ومثلهم الأعلى.

كان يحذر الإسرائيليين بتصريحاته وخطاباته، يقول للإسرائيليين: إن الفلسطينيين ليسوا ضعفاء، ولسنا منهزمين. ويؤكد لهم أننا قد نفتقر إلى السلاح والقوة ولكن نحن قوتنا في مقاومتنا السلمية، وفي روح الثورة وفي إيماننا بالحق. هذا هو سلاحنا، وعليكم أن تعرفوا أنه إذا تفجر الشعب الفلسطيني يوما فسيفجر العالم. ولا تستهتروا بالإنسان لأنه قوة، ولا تلعبوا بالنار لأن النار ستقلب السحر على الساحر.

وقد أسس عبد الجواد صالح عدة مؤسسات منها إنعاش الأسرة مع السيدة سميحة خليل، كما أسس العديد من المؤسسات الخيرية والإنسانية في الضفة الغربية والقدس.

المقاومة السلمية من وحي التاريخ

وكان ينسق مع المفكرين والمثقفين وحركات التحرر الوطني ورؤساء البلديات والشخصيات الوطنية. وكنا من أوائل الذين تعلموا منه المقاومة السلمية للاحتلال. كان يقول: فلنأخذ مثلا مقاومة الفرنسيين للألمان إثر احتلال ألمانيا النازية لفرنسا لتكون قدوة لنا.

وكان يقول لنا: إن لا هوادة مع الحكم العسكري، فكان عندما يأتي الجيش في الليل ويكسر تمثال الحرية الذي أقامه في مدخل البيرة؛ كان يعيد بناء التمثال مرة ثانية. كما كان يعبئ الجماهير التي كانت تأتي لمقابلته، وكان يناقش تلك الشخصيات الوطنية، وقيادات الاتحادات النسائية التي تأتي للقائه في البيرة وتتضامن معه. كما كان يلتقي إلياس فريج، وكريم خلف، وحمدي كنعان وغيرهم من القيادات الفلسطينية التي كانت تنسق معه وتستأنس برأيه.

كان دائما يشحن الناس الذين حوله بمعنويات عالية، وبطرق جديدة وحيوية وابتكارية لمقاومة الاحتلال.

لقد كان قدوة لنا عندما كنا في الاتحاد النسائي وفي الجمعيات الخيرية حيث كنا على تواصل مستمر معه.

وكانت قائدة مدرسة المقاومة السلمية في نابلس المرحومة خولة عبد الهادي؛ التي كانت تؤمن بهذه المدرسة إيمانا عميقا وتنسق مع عبد الجواد صالح، ومع المناضلات في نابلس اللواتي دخلن السجون الإسرائيلية ومنهن سعاد العبوة، ونائلة العطعوط.

وكانت خولة عبد الهادي ترفض أن تشرب القهوة التي كان يقدمها الحاكم العسكري إلى الأشخاص الذين يستدعيهم ليحذرهم من مقاومة الاحتلال.

كما كانت د. يسرى صلاح من الأوائل الذين آمنوا بالمقاومة السلمية، وكانت ترفض أن تلتقي بأي إسرائيلي، واستقالت من عملها كمفتشة للتعليم لأنها لا تريد أن تتعامل مع العدو كمفتشة في التربية والتعليم.

في بيتي مع صفوة المثقفين والمناضلين

وكان النقاش يدور في بيتنا في نابلس بين المثقفين والحزبيين حول هذه السياسة، وهل هي إيجابية أم سلبية. وهل كان علينا أن نتعامل مع الحياة اليومية للمحتل، وكانت تدور في بيتي النقاشات بين كل الفئات وكان يشارك فيها الدكتور قدري طوقان، وفدوى طوقان، وسحر خليفة، وفايزة عبد المجيد، وعصام عبد الهادي، وسهير المصري، ونهاية المصري، ود. شوكت الكيلاني، ود. فؤاد الطاهر، ويوسف رضا المدير العام للوكالة، ود. فيصل كنعان، ود. وليد قمحاوي، ووصفي المصري وحسين الجاغوب، وحمدي كنعان رئيس بلدية نابلس. وكان موضوع النقاش دائما حول سياسة المقاومة السلمية وهل هي ايجابية أم سلبية.

لملمة الجراح بعد كبوة عبد الناصر

لقد كانت مرحلة ما بعد هزيمة 1967 وكان اليأس يسيطر على كثير من المفكرين والحزبيين بسبب استقالة جمال عبد الناصر، كنا بحاجة إلى أفكار جديدة ودم جديد رغم سيف الاحتلال المسلط على رؤوسنا وتهديد دايان وسياسته التهجيرية وإبعاده للقياديين، وكانت الشخصيات الوطنية تبحث عن حل معتدل برغماتي لإعادة الحياة إلى الحياة اليومية في أصعب الظروف القاسية للاحتلال.

ولكن عبد الجواد صالح كان لا يخاف أحدا، وكان يتحدى الاحتلال بجرأة، وكان جيل بأكمله من الشباب معجبا بشخصيته. كنت في بيروت عندما استشهد ابنه الشاب ماهر الذي كان يدرس في بيروت،

كنت أسير جنبا إلى جنب مع والدته، في القلب غصة وفي العين دمعة. وتواصل سيرنا ونحن نتذكر كيف انضم إلى المقاومة الفلسطينية واستشهد في لبنان وهو في حوالي الثامنة عشرة من عمره. حيث خرجت بيروت عن بكرة أبيها لوداعه. ولقد لف النعش بالأعلام الفلسطينية. وكانت الأعلام اللبنانية والفلسطينية جنبا إلى جنب مرفوعة أثناء الجنازة الحزينة التي طافت بكل منطقة الجامعة العربية والقيادة الفلسطينية وشوارع بيروت.

وكان الرئيس عرفات والقيادة الفلسطينية كلها في الجنازة، كما كانت الحركات التقدمية اللبنانية من كل الأحزاب وكانت فرق الكشافة والفرق الموسيقية الفلسطينية تعزف الأناشيد الوطنية الحزينة، وكانت الجماهير تذرف الدموع على فقدان الشاب ابن عبد الجواد صالح وهو يسير جنبا إلى جنب مع أبو عمار الذي أمسك بيده وبجانبهم: أبو إياد، أبو نضال، أبو جهاد، أبو الهول، وماجد أبو شرار، ومعين بسيسو، ومحمود درويش، والقيادة الفلسطينية بأكملها. وكان النعش مغطى بالزهور والأعلام الفلسطينية، وكان اللبنانيون يقفون على الطرقات ينرفون الدموع في وداع حزين لهذا الشاب الذي أتى طالبا إلى بيروت واستشهد من أجل فلسطين.

ومما أذكره أن عبد الجواد صالح كان يقود الاعتصامات والمظاهرات من أجل الحفاظ على الهوية العربية للقدس، وكان من أوائل الذين وقفوا مدافعين عن القدس، حيث زار النساء المعتصمات في كنيسة القيامة التي تواصل اعتصامهن مدة ثلاثة أيام بقيادة خولة عبد الهادي وسميحة خليل.

البحث عن منبر

عندما حدثت النكبة كان عبد الجواد صالح في السابعة عشرة من عمره.. كانت الصدمة مزلزلة.. شعب يُقتلع من أرضه.. ويشرد.. وفلول من العصابات.. تغتصب أرض فلسطين.. أذهلت هذه الأحداث وجدان وفكر الشاب اليافع.. كان يلتقي مع نفر من أصدقائه.. يذرعون شوارع مدينة البيرة.. ويطوفون بحارات وحواري رام الله والقدس.. وهم يفكرون بصوت عال.. ماذا يجب أن نفعل؟

لقد سكنت روح الثورة.. والمقاومة وجدان وفكر الشاب الصغير منذ أن كان طالبا في المدرسة الثانوية.. وكان الجواب الذي اتخذه دستورا لحياته: يجب مقاومة العدو.. بالتنظيم والعمل.. والعلم والتخطيط.. والانضمام إلى فئة.. ترفع لواء المقاومة.

الضيوف فقط يشربون القهوة

وعندما حدثت هزيمة عام 1967.. كان أبو صالح على رأس بلدية البيرة. وفي هذه المرحلة كان حب الناس وإعجابهم بعبد الجواد صالح، خريج الجامعة الأمريكية.. وابن فلاح من طينة بلادهم. لا مثيل له.

حب الناس.. أيقظ في وجدانه وفكره.. كل المشاعر الوطنية النبيلة.. وأشعل في روحه جذوة النضال والمقاومة.. بالعلم والعمل والمنطق.. وحشد الطاقات وإيقاظ روح الرفض والمقاومة.. لهذا العدو الغاضب المتغطرس.. المرعب.. كان الحكام العسكريون المتعاقبون.. يسعون إلى إقامة علاقات مع رئيس البلدية.. وكانوا حريصين على زيارته في بيته لاعتبارات كثيرة.. ولكن "أبو صالح" كان يقابلهم دائما بهذا المنطق البسيط المفحم.

- أنتم أعداؤنا.. ولا يدخل بيتي ويشرب القهوة إلا الأصدقاء.. وأنتم احتلال.. أنت تدخل بيتي في حالة واحدة فقط.. إذا أردت أن تعتقلني.

إلى بيروت .. استدعاني عرفات بقصاصة ورق

عندما أبعدت إلى وادي عربة.. ضمن ثمانية من الرفاق.. ألقت بي قوتهم في وادي عربة.. كنت ملقى على أرضية الدبابة حين دفعتني أقدام تلبس أحذية سميكة.. إلى أعماق الوادي..

وعندما تواترت الأنباء.. وجدت نفسي أمام الملك حسين.. وكان عتاب.. وكانت مناقشات ورؤى.. وأفكار.

قلت للملك حسين: لقد دمرت العلاقات بين الشعبين الأردني والفلسطيني، لقد ارتكبت المنظمات خطأ جسيما وخطيرا وهذه الدماء التي سالت من الطرفين أساءت إلى روح العلاقة الأخوية التاريخية بين الشعبين الفلسطيني والأردني.

فأجاب الملك: لقد ارتكبت المنظمات سلسلة من الأخطاء الخطيرة التي لا يمكن السكوت عليها، وأنا مسؤول عن شعبي وعن الشعب الفلسطيني، ولا يمكن لأي إنسان في موقع القيادة إلا أن يرد بالأسلوب والطريقة التي تعاملت بها مع الطرف الآخر.

ثم تلطف جلالة الملك وعرض عليَّ الوزارة ولكني اعتذرت.. وأرسل إليَّ عرفات "قصاصة" فسافرت فورا إلى بيروت لالتحق بالثورة.

وهكذا أمضيت أكثر من عشرين عاما.. وأنا جندي وقائد.. ومقاتل في صفوف الثورة الفلسطينية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية.

مع وضد عرفات على طول الخط

ببساطة شديدة.. وعفوية.. وصدق يعلن أبو صالح رفضه لنهج عرفات في إدارة الثورة وأساليب الحكم.. فعرفات يؤمن.. بأن القائد يجب أن يكون صاحب رؤية وصاحب كلمة وموقف.. وأنه يجب أن لا يكون تقليديا في أرائه وأفكاره وأسلوبه.

وعبد الجواد صالح.. خريج الجامعة الأمريكية "اقتصاد سياسي" والمعلم الثانوي والكاتب الصحافي.. يؤمن بالفكر والسلوك والنهج القائم على روح المؤسسة فلا مكان للفردية، ولا مجال للبطولات المرتجلة والتصرفات الدراماتيكية.

وكان طبيعيا، ألا يستمر التعاون بين الاثنين، أكثر من سنتين أمضاهما أبو صالح وزيرا للزراعة.

وعندما نجح أبو صالح في استثمار مائة مليون دولار في قطاع الزراعة.. شعر عرفات بخطورة هذا التوجه، ورأى أنه عليه أن يشطبني.

ولا أشك في أن هناك من قام بدور رسول الشيطان ليوقف مشروعاتي التي أحلم بتحقيقها على الصعيد الزراعي والتي سجلت أرقاما.. قياسية.. وكانت قادرة على إثبات أن اليهود ليسوا ملوكا في الزراعة.. والعمل في الأرض.. وأننا أسبق وأجدر منهم وأكفأ.. ولكن بريق الزعامة يطفئ بريق العقل.

سارق الملايين بين دماء الكادحين

نجحت في انتخابات المجلس التشريعي بصورة أهلتني لان أكون وزيرا في أول وزارة تشكلها السلطة الفلسطينية بعد عودة منظمة التحرير الفلسطينية إلى فلسطين.. واستطعت بالدراسة والبحث مساعدة الكفاءات الفلسطينية أن أقف على خفايا وخبايا القطاع الزراعي في فلسطين، وهو المصدر الأساس الرئيس للقطاع الاقتصادي وسوق العمل الفلسطينية، وبعد سنتين.. تركت وزارة الزراعة.. وأخذت أرقب أداء من جاء بعدي. وصح ما توقعت، فقد استطاع أحد المتنفذين أن يجمع أكثر من ستة ملايين ونصف دولار في عام واحد من قطاع واحد معروف وهو استيراد "الماعز الاسترالي".. الذي كان معفى من أية جمارك.

ما علينا.. قدمت مذكرة للنائب العام.. مدعومة بالأرقام.. ولكن؛

"لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي"

وبلغني أن بعضهم قال:

- كان وزير الزراعة السابق غبيا.. كان ساذجا فلماذا يريدنا أن نكون مثله.

وقال معلم مدرسة اعتقل وهو يدافع عن حقوق المعلمين ضمن إضرابات النقابة:

- تريدون اعتقالي.. لأني أطالب بحق المعلم المهضوم.. وتتركون من يسرق ستة مليون دولار ونصف في عام واحد.

فلما قيل له:

- وما دليلك على ذلك؟

قال كلمتين فقط.. عبد الجواد صالح.

تعلمت من أمي الفلاحة .. عشق الأرض

عندما حدثت النكبة.. كنا أسرة مكونة من ثلاث بنات وولد وكان والدي من أوائل من شدوا الرحال إلى أمريكا.. فقد سافر إليها عام 1945.. بُعيد ثورة عام 1936، وما والاها من أحداث..

كانت نكبة فلسطين حدثا زلزل كيان الأمة العربية، وجر البؤس والشقاء والفقر والجوع على شعبها.. توقفت مصادر العمل.. وخيم شبح الجوع والفقر على ربوع وطننا.. ولكن أمي التفتت إلى أرضنا.. وقفت بعزيمة الفلاحة وصدقها وقوتها.. تزرع الأرض وتشرف على حرثها وزراعتها وريها وتعشيبها وجمع محصولها.. تعمل.. وتعرق.. وتجند من يعمل.. كانت أنموذجا رائعا.. رأيته يتكرر في سنوات الانتفاضة الأولى عندما أخذت الأسر الفلسطينية تعود إلى فلاحة الأرض وزراعتها. وقفت أمي والفأس في يدها، والعزم والإصرار في عينيها وعلى جبينها تسيل قطرات عرق التحدي والعمل.. وأزهرت الأرض وأثمرت.. وفاءت علينا بالخير.

أقول لكم الحق.. لو لم تفعل أمي ذلك لجعنا.

بذور الوطنية في حقل التعليم

ولد عبد الجواد صالح عطا حمايل في مدينة البيرة في 1931/12/3 لأب فلاح كان يعمل في الزراعة، وكان الابن الوحيد بين ثلاث أخوات.. وكان بيت والده وعمه حيث تفتحت عيناه في حي الشرفة المعروف، وقد التحق في صباه الباكر بمدرسة البيرة، التي تقع قرب الجامع القديم، وقد التحق لفترة من الوقت

بمدرسة البيرة الثانوية.. وكانت المدرسة الهاشمية الشهيرة لم تظهر بعد. ولكن بعد أحداث نكبة عام 1948.. ظهرت المدرسة الهاشمية.. وهي أعرق مدرسة في تاريخ رام الله.

وقد التحق عبد الجواد بالكلية الوطنية في رام الله التي كان مديرها الأستاذ خليل أبو ريا وكان ذلك سنة 1951/1950.

هؤلاء أحببتهم .. فتعلمت منهم

ويستذكر أبو صالح، أنه في فترة الدراسة الثانوية، تأثر بالأستاذ رفعت الشهابي مدرس الزراعة الذي علمنا حب الأرض والزرع والخضرة، وغرس في نفوسنا بذور الانتماء.. وقد وجدت أفكار هذا المعلم صداها في نفسي، حيث كنت أدرك منذ عهد الصبا أن الأرض هي محور الصراع بيننا وبين العدو.. كان أستاذنا يعشق الأرض والزرع والخضرة، كان محبا حقيقيا للأزهار والبذور والأشجار والثمار.. تشعر وأنت تراقبه يتعامل معها.. كأنه عاشق.. وأنه محب حقيقي.. في لمساته دفء الحب ورقته وسلاسته.

لقد تعلمت منه كيف أحب الأرض، وكيف أرويها بالعرق والدم والجهد.. لتعطينا مذاق العسل وحلاوة الثمار.

وقد استطعت بفضل جهود وتوجيه معلمنا أن نحول المنطقة الواقعة بين المنارة، والمدرسة الهاشمية إلى مزرعة نموذجية.. وكان لتلك المزرعة أثره في نفسي ووجداني.. حيث اجتمع أمام ناظري أنموذج فريد يجمع بين الجمال والعطاء.. بين الخضرة والخير.. بين العرق والثمرة.

روت الأرض بعرقها لتعيلنا

ومما عزز ارتباطي بالأرض وحبي لها.. بمشاعر الفلاح الفلسطيني التقليدي.. المفطور على حبه لأرضه.. موقف والدتي.. كان والدي.. قد غادرنا إلى أمريكا.. منذ عام 1945.. فاعتمدت والدتي على نفسها.. بدأت تحرث وتعزق الأرض وتلقي البذور.. وتغرس وتعشب.. وتروي وتتعهد محاصيلها بمثابرة وجد.. وعمل متواصل وهكذا ساعدت الأسرة على أن تجتاز محنة قاسية كانت تهددنا بالجوع والحاجة.

كانت أمي.. والأرض.. هي الثنائية التي انطبعت في وجداني وعلمتني.. أن العمل والصمود والمثابرة.. تنمي في داخل الإنسان قيم الحق والكفاح والصراع.. الذي يقود إلى النجاح مهما اشتدت المحن.

ومن المعلمين الذين أحببتهم وأثروا في حياتي الأستاذ جورج خميس مدرس اللغة الانجليزية.. فقد حببني في هذه اللغة، وكذلك الأستاذ "دحدح" معلم الرياضيات. أما أهم أصدقاء تلك الفترة من زملائي الطلاب فكان الشاعر والأديب أمين شنار.

في قاهرة المعز .. طالبا في الجامعة الأمريكية

في مطلع عام 1950.. التحقت بالجامعة الأمريكية في القاهرة لدراسة الاقتصاد السياسي، وما أذكره.. بفخر واعتزاز أن مشروع التخرج الذي قدمته كان عبارة عن أطروحة تناقش إقامة اتحاد جمركي بين دول الجامعة العربية وذلك كنواة لوحدة سياسية واقتصادية.

كان ذلك في عام 1955.. وقد حاول أستاذي المشرف على الدراسة، وهو بريطاني الجنسية أن يثنيني عن هذا الموضوع على أساس أنه يتناول أفكارا غير عملية.. وخاصة فكرة التبادل السكاني.. التي كنت أدعو إليها.. فالعراق مثلا كان تعداده في تلك الفترة حوالي 15 مليون نسمة.. وهو بلد زراعي وفيه ثروات وإمكانات.. وفرص للاستثمار.. مع قلة في السكان.. لذلك فان فكرة التبادل السكاني بين الأقطار العربية تحقق الرخاء والوحدة والخير.. وتنهض بالأمة العربية.

بين الصحافة .. والتعليم

وعندما تخرجت من الجامعة عدت إلى أرض الوطن لأعمل في التدريس مع الوكالة في مدرسة القدس الثانوية، وكان ذلك سنة 1955- 1956.

وشهدت تلك الفترة انقلاب النابلسي. وتعززت فيها أفكاري واهتماماتي السياسية والوطنية بانتمائي إلى حزب البعث.

ومن ثم سافرت إلى ليبيا للعمل في التدريس، وأمضيت في مدينة طرابلس السنوات من 58 حتى 1962.. وكانت هناك نقمة على الفلسطينيين.. فبدأت أكتب في الصحف الليبية محاولا أن أعرّف بالقضية الفلسطينية. وكانت مقالاتي بالعربية والانجليزية تنشر في جريدة طرابلس الغرب، وفي صحيفة Arab Tripoli Mirror ، بالإضافة إلى صحيفة الحرية"، وهي جريدة اتحاد العمال.. وكنت أوقع مقالاتي باسم "البيراوي".

العودة إلى أرض الوطن

في عام 1962، عدت إلى أرض الوطن، وقررت ألا التحق بأي عمل حكومي.. حتى لا يشكل قيدا عليّ في حياتي واهتماماتي، فاشتغلت في التجارة.

وعندما وقعت هزيمة عام 1967، كنت يومها رئيسا لبلدية البيرة.. ولم يكن قد مضى على انتخابي في هذا المنصب أكثر من أربعة شهور.

وبحكم موقعي.. كنت أعمل بكل طاقاتي على نشر ثقافة المقاومة والرفض.. كنت أدرك مدى قوة وجبروت اليهود.. وعنصريتهم.. وكنت على وعي.. بمشاعر الرهبة والخوف والترقب التي تجتاح نفوس المواطنين.. وكان لا بد من اجتياز وكسر هذه الحواجز النفسية للتصدي للاحتلال ومخططاته.

وعملنا في هذا الاتجاه لإنشاء حركة العمل التطوعي.. وقد ذهل الحاكم العسكري عندما وجد إقبالا لا نظير له من قبل الشباب على الانخراط في العمل التطوعي.. الذي نظف المدينة في ساعات قليلة من آثار الثلج.. ومن ثم جمع الحاكم العسكري كل الشباب المنضوين تحت لواء العمل التطوعي.. وهددهم بصراحة قائلا:

- كل من ينضم إلى جيش عبد الجواد

إما أن أبعده

أو أحبسه

أو أنفيه

كما عملت في هذا المجال بإنشاء جمعيات تعاونية عديدة، ونقابات عمالية في مختلف القطاعات.. كنت دائما أهدف إلى بناء مجتمع مقاوم.

الاحتفال بحقوق الإنسان على الطريقة الإسرائيلية

وفي عام 1973.. يوم 1973/12/10 نفيت إلى وادي عربة.. وهذا اليوم يوافق الاحتفال باليوم العالمي لحقوق الإنسان. ولا زلت أذكر.. كيف عملت معركة مع الجنود الذين جاؤوا لاعتقالي وترحيلي.. كانوا مجموعة من عساكر المخابرات أكثر من ثلاثين جنديا.. رموني أرضا.. ثم ربطوني.. ومن ثم قذفوني من الدبابة لاكتشف أن هناك سبعة آخرين من قيادة الجبهة الوطنية.. كلهم صدرت الأوامر بنفيهم إلى وادي عربة الصحراوي.

ولما انتشرت أنباء هذا الأبعاد.. نقلت إلى عمان.. يومها قابلت جلالة الملك حسين.. وكان حوار وعتاب واستذكار للوشائج والروابط التي تجمع بين الشعب الأردني والشعب الفلسطيني.. يومها تلطف جلالة الملك وعرض على الوزارة.. ولكنني اعتذرت.. فلما أرسل إليَّ عرفات قصاصة ورقة.. ذهبت إلى بيروت وأمضيت أكثر من عشرين عاما جنديا مقاتلا في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية.

في عام 1973 تم تعييني عضوا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير.. وكان دوري هاما بالنسبة للداخل.. فقد لاحظت عدم اهتمامهم بالداخل، وربما جهلهم بطبيعة الأمور في داخل الأرض المحتلة.. وأذكر أني قمت بإنشاء عشرات الملاجئ في المخيمات.. وذلك لحماية أرواح أبناء فلسطين من الغارات.. وقد ثبتت فعالية هذه الملاجئ عندما تعرضنا للغزو السوري في شتورا.

مركز القدس للدراسات الإنمائية

في عام 1981.. وبعد عشرين سنة.. تركت المنظمة.. ورجعت إلى عمان حيث أنشأت مركز القدس للدراسات الإنمائية.. وتواصل عملي في هذا المركز حتى عام 1993- 1994، حيث عدت إلى فلسطين.

ماذا أقدّم لهؤلاء الذين وثقوا بي

في عام 1996 رشحت نفسي للانتخابات وحزت على أعلى نسبة أصوات في كل فلسطين وأمام هذه الحقيقة.. توقفت طويلا مع نفسي.. أن حب الناس وثقتهم تستحق كل ألوان العناء والمكابدة والمجاهدة.. فأنت تحصد ما زرعته يداك على المستوى الأخلاقي والديني والإنساني.

لقد ازددت يقينا بان نظافة اليد والذمة والضمير.. والأمانة والصدق في نفسي.. إنما هي ثمن زهيد لحب والناس وثقتهم.

دخلت المجلس التشريعي مسلحا بهذا المبدأ.. الأمانة والصدق مع النفس، والعمل بكل جهد ممكن لأكون عند حسن ظن هؤلاء الذين انتخبوني.. وبالتأكيد فاني لا اعرف معظمهم معرفة شخصية.

كان علينا جميعا في هذه المرحلة الانتقالية من حياة أمتنا أن نقيم نظاما أساسيا سليما.. نظاما سياسيا ديمقراطيا إلى حد بعيد.. وأستطيع أن أقول إنني أرسيت بالفعل أسس الديمقراطية ومن ثم تم تعييني وزيرا للزراعة.. من سنة 1996 حتى سنة 1998.

وقد أحببت العمل في وزارة الزراعة، ووجدت نفسي أقترب من تحقيق طموحاتي.. في أن أنشر الخصب والنماء والخضرة في أنحاء فلسطين وأعيد آلاف العمال والفلاحين إلى أراضيهم، وأعيد الخضرة والنماء إلى أشجارنا وحقولنا.. إن ارض فلسطين أرض زراعية خصبة وأن العودة إلى الأرض والزراعة سلوك حضاري ووطني وإنساني.. بل.. هو مخطط اقتصادي.. فاعل.. انهمكت في العمل.. وشغلتني الزراعة والأرض واستطعت أن استثمر أكثر من 100.000 مليون دولار.. في مختلف المجالات الزراعية.. ولكن للأسف الشديد فإني:

"أُعادى على ما يوجب الحبَّ للفتى وأهدأ والأفكار فيّ تجول"

لقد وجدت نفسي في حالة صراع ومواجهة مع القائد.. وإني لأعجب.. كيف يكون الإنسان قائدا شجاعا ومحاربا فذا.. ثم يصغي إلى تقولات صغيرة.. ووشايات حمقاء.. ودسائس رخيصة.

الصدام مع عرفات .. رؤية ومنهاجاً

لا يختلف اثنان على أن الرئيس عرفات شخصية قيادية متميزة.. وأنه يؤمن بعقلية الثائر.. والقائد الملهم.. الذي يريد أن يكون محور القرارات.. ويريد أن يكون مسؤولا عن كل شيء.. من رباط حذاء الجندي.. حتى الصاروخ.. كما كان يروى عنه.

وأنا بطبيعتي أخالف هذا التوجه الفردي.. حتى لو كان يأتي من شخصية ملهمة.. أو قدرية.. أنا أومن بالنظام القائم على أسلوب المؤسسات.

لقد كنا بعد عودتنا إلى الوطن، نعيش مرحلة انتقالية كان لا بد أن نقيم مؤسسات الدولة.. لنبني قواعد الدولة على أسس سليمة.

أبو صالح .. المثقف المحارب

لحظات التوهج والعبقرية في شخصية عبد الجواد صالح هي ما نبحث عنه عبر هذه المقالات.. نحن لا نقوم ولا بصورة من الصور بالدعاية للأشخاص.. نحن نقوم بالدعاية للمبادئ والأفكار.. للنماذج البديعة الرائعة المتوهجة في هذه الشخصيات لتكون شاهدا صادقا على عظمة شعبنا.. وقدرته على إنجاب هذه النماذج الرائعة المبهرة.. التي تشكل هداية ومنارة.

نحن لا نفتح أنهار الصحف لتصفية حسابات، لا ندين، ولا نحكم، ولا نجلس على مقعد القضاء لنوزع الاتهامات والأحكام وتصدر فتاوى البراءة والإدانة.. ولكننا نعرض جواهر ولآلئ ودرر ما في الشخصية الفلسطينية التي تثبت للعالم.. أننا شعب يستحق الحرية والاستقلال.. وهذا هو المعيار الذي يرتضيه كل دارس ومنصف.. إن عظمة أي أمة يقاس بعدد المبدعين العباقرة الأفذاذ من رجالها.. وكان عبد الجواد صالح في طليعة هؤلاء..

لا يهمني أن يتفق مع عرفات أو يختلف معه.. لا يهمني أن أحقق لأحكم.. مَن ظلم مَن.. فمن أنا لأقيّم عمالقة الرجال.. إنما أنا أعرض سطورا مضيئة لا يستطيع أحد أن ينكر ما فيها من إشعاعات ومبادئ.. وقيم.

والجميع يعرف أن شيئا لن يزعزع إيماني بعرفات، وقيادته، وكفاحه.. ذلك ما حكم به العالم أجمع يوم سلمه جائزة نوبل للسلام.. وذلك ما أجمع عليه شعبنا.. من أطفال المدارس إلى أكبر المؤرخين

والدارسين.. يكفي أن نقول إن أكثر من سبعين كتابا تم تأليفها في ياسر عرفات.. لكن كل ذلك.. لا ينال من حبي وتقديري وإعزازي لشيخ المناضلين.. شيخ الشباب.. عبد الجواد صالح الذي لا يزال وهو يدق أبواب الثمانين يمارس الرياضة ويعمل في الزراعة.. ويهدي الوطن عصارة فكره ومبادئه وثقافته.

رجل دولة.. وعلم.. وعمل.. رائد من الرواد.. من أول خمسين شخصية فلسطينية حملت درجة جامعية رفيعة.. ابن فلاح.. هاجر.. وتغرب.. وتعذب.. ليعلم ابنه في أرقى جامعات العالم.. الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

شاهد على العصر

في بيته الريفي الجميل.. المحاط بالأشجار والخضرة.. ومع الذكريات ينشغل الأستاذ عبد الجواد صالح في إفراغ تجربته في كتب ومؤلفات ستصدر تباعا.. ولعل أولها كتابه الفريد "وزير زراعة بدون أرض وبدون ماء" وهو رؤية وتجربة فريدة يقع في حوالي 340 صفحة وقريبا سيأخذ طريقه إلى النشر.

عزيزي أبا صالح..

لقد أثرت شجوني وحركت مشاعر الإعجاب والشجن في نفسي وأنت تتحدث عن أمك الفلاحة البسيطة التي ألهمتك حب الأرض وجعلت منك ذلك الثائر الفذ الذي نعرفه، إن ثنائية الأرض والأم تشدني دائما كما تشد أي إنسان فلسطيني، فالأم والأرض هما العنوان الحقيقي لهوية الشعب الفلسطيني.

وقد توقفت طويلا عند المرحلة التي كنت فيها تعمل مع الرئيس عرفات، لا شك أن هذه الفترة كشفت عن معدنك الأصيل وشجاعتك في الحق، كأنك بذلك تعيد سيرة أسلافنا من القيادات الإسلامية الشجاعة التي كانت لا تهاب القائد ولا تكتم رأيها وإنما تبديه بكل شجاعة وحب.

وقد فهمت أن الرئيس عرض عليك أكثر من مرة أن تعود إلى صفوف الوزارة وأن تعمل معه ولكنك كنت تعتذر، هذا العرض من الرئيس وهذا الرفض منك له دلالة إنسانية ونفسية على جوهر القائد وعلى جوهر المناضل أبو صالح.

أما مقابلتك لجلالة الملك حسين فهي صفحة من التاريخ لا يمكن أن نمر بها مرور الكرام، وإنما يجب أن نتوقف عندها لأن الإنسان حتى لو كان منفيا من وطنه، مجردا من سلاحه، ماثلا أمام قوة وقيادة لها وزنها ثم يبدي هذه الآراء الصريحة بشجاعة وصدق كل ذلك يدل على أي معدن قُدّ منه عبد الجواد صالح.

ابن البيرة.. الفلاح.. المعلم.. الصحفي.. القائد.. الكاتب.. ابن الثمانين الذي يتألق شبابا وحيوية وما زال يخوض معارك وطنه عودا على بدء.

(2012/6/15)

المهندس عدنان سمارة

لا شيء يعجزنا في مجال المقاومة لا الطائرات ولا الصواريخ
اللجنة العلمية.. أكثر من ستين عالماً ومهندساً ،
وألف متخصص يقدمون الوسائل القتالية والدفاعية
دمرت قوات العدو مراكز اللجنة العلمية عدة مرات متتالية،
وفي كل مرة كنا نعيد بناءها بشكل أفضل
وظفت تفوقي في دراسة الهندسة لخدمة الثورة وعملت مع أبو جهاد وأبو عمار وأبو مازن

المهندس عدنان سمارة واحد من الرواد الذين يشكلون ظاهرة فريدة رائعة في تاريخ الثورة الفلسطينية.

ظاهرة لها دلالتها العلمية والحضارية والإستراتيجية.. ظاهرة تتصدى للعدو وتصارعه وتتحداه في حقل العلم والتكنولوجيا، وتثبت له أن العقلية الفلسطينية عقلية حضارية متمدنة واعية.. تفهم مفردات العصر وتعرف كيف تكون نِدا في صراعها الحضاري مع آلة الغزو والدمار الصهيونية.

إن أكثر ما تحاول إسرائيل أن تسوقه إلى العالم، أنها دولة حضارة وعلم وأبحاث، وأنها فريدة ورائدة وسباقة، وإن العنصر العربي عنصر متخلف، صاحب عقلية مزاجية انفعالية وهو عقل قاصر مشتت لا يستطيع إدراك طبيعة العلم ومفرداته وأساليبه.

من الرصاصة إلى الصاروخ

ويعلم الجميع أن الثورة الفلسطينية كانت رائدة عندما أخذت تبحث عن الكوادر العلمية والهندسية المتميزة، وتوظفها لخدمة الأبحاث والدراسات القادرة على إمداد مقاتلي الثورة بكل ما يحتاجونه من الرصاصة حتى الصاروخ، بل إن مهمتنا كانت كما يقول المهندس عدنان سمارة تتركز في إبداع كل ما هو غير تقليدي، كل ما هو جديد وفاعل ومفاجئ للدوائر المعادية.

كانت اللجنة العلمية هي المسؤولة عن تزويد قوات الثورة الفلسطينية بالعلم والسلاح، وكانت قادرة على أن تصنع السلاح أو تأمينه، كما كانت عضوا فاعلا في كافة مراكز ومؤتمرات البحث العلمي في كل أنحاء العالم.

يقول عدنان سمارة كانت فكرة إنشاء اللجنة العلمية قد تبلورت في ذهن أبو جهاد، ومن ثمّ دعمها وأيدها أبو عمار وبعد أن قطعت شوطا في عملها برئاسة بعض الزملاء كنت أنا المسؤول الرابع الذي يشرف عليها حيث سبقني الإخوة حكمت زيد، وعصام سنقرط، وفتحي دوعر. وكنا قد أنشأنا عدة مصانع ومنشآت ومراكز أبحاث بالتعاون مع الدول العربية وخاصة في العراق واليمن وسوريا والجزائر.

التحدي والتحدي المضاد

ويستذكر عدنان سمارة أن مؤسسات ومرافق ومراكز اللجنة العلمية كانت هدفا للعدو الإسرائيلي، الذي هاجم مراكزها مرة بعد أخرى، وقد بلغت محاولاته لتدمير اللجنة العلمية وشل فاعليتها وقدراتها أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة كنا نعيد بناءها بشكل أفضل قدرة وفاعلية.

لقد كنا على وعي بأن ما نقوم به هام وحيوي ومصيري في صراعنا مع العدو، وكلما زادت رغبته شراسة في تدمير هذه اللجنة الفاعلة، ازددنا بدورنا إصرارا على تطويرها وتحسين أدائها والرقي بآلية عملها.. وانتخاب العناصر المتفوقة علميا لضمهم إلى كوادرها وعضويتها.. وهكذا وصل عدد العاملين في اللجنة العلمية إلى أكثر من ستين مهندسا، ودكتوراه في الهندسة بالإضافة إلى ألف متخصص في شتى فروع المعرفة والعلوم التكنولوجية والتطبيقية.

واحد من عشرة أسباب

وعندما شنت إسرائيل حربها على جنوب لبنان وبيروت عام 1982 كان ولا شك لديها أسبابها ولعل من إحدى هذه الأسباب هو رغبتها في سحق وتدمير اللجنة العلمية وتعطيلها وإبطال عملها واغتيال كوادرها.

وهذا التوجه يؤكد أننا كنا نسير في الاتجاه السليم في حربنا وتحدينا لقوات العدو الإسرائيلي الغاشمة.

إن الجيوش لا تنتصر فقط بالشجاعة والبسالة والروح القتالية العالية.. لا بد أن يكون هناك عقل علمي منظم مساعد في التخطيط والبرمجة والتنفيذ ولا بد أن تكون هناك وسائل قتال متطورة نتيجة البحث والدراسة وتفوق العقل الواعي المثقف الذي لا يقل روعة وتألقا عن علوم الطرف الآخر.

لقد نشطت الثورة الفلسطينية في البحث عن العناصر الملائمة لتجنيدها، فاتجهت إلى الطاقات العلمية البناءة التي تتميز بالذكاء الوقاد والروح الوطنية الأصيلة حيث يتم استقطابها وتجنيدها وشحنها بالروح الوطنية والعلمية والنضالية.

ملامح شخصية مميزة

يمتاز الأخ عدنان سمارة بالهدوء، والملامح الإنسانية الودودة، الطيبة والوجه السمح الذي يجسد الألفة والحب، وتشعر منذ الوهلة الأولى للقائه أنك أمام إنسان متميز كأنه فنان أو مخرج أو شاعر أو كاتب، لطيف المعشر، حسن الدعابة، كريم الروح والسجايا، ولكن خلف هذه المظاهر والسمات تكمن شخصية باحث علمي مؤسس ومهندس فذ متفوق درس الهندسة في ألمانيا، في جامعة ميونخ، وتفوق وأبدع بصورة لفتت إليه الأنظار، ولما ولدت فكرة المؤسسة العلمية المسماة اللجنة العلمية كان اسم عدنان سمارة يقفز إلى أذهان أصحاب القرار. فكان من أوائل من رشحوا للانضمام إليها خاصة وهو عضو فاعل في حركة فتح

ومناضل له حضوره وعلاقاته بل هو من صفوة المناضلين الذين درسوا في ألمانيا وعرضنا لذكرهم عندما قدمنا الدكتور غازي حنانيا. فهذه النخبة من طلبة وشباب فلسطين الذين درسوا في ألمانيا أحدثوا تيارا وطنيا وإعلاميا وثقافيا جعل فلسطين في مركز الصدارة وخلق لها جمهورا واهتمامات في الشارع الألماني وعلى المستوى القيادي والسياسي.

اللجنة العلمية .. تفكير ثوري رائد

والواقع أننا نحفظ أسماء وتاريخ وبطولات القادة العسكريين المناضلين في الثورة الفلسطينية.. نحفظهم عن ظهر قلب على شكل سلسلة من الأبطال الذين قضوا في ساحة الشرف ومنهم أبو إياد، وأبو علي إياد، ومحمود الهمشري، وعز الدين قلق، وسعيد حمامي، وأبو جهاد، ووائل زعيتر، وأبو يوسف النجار، وأبو الهول، ونعيم خضر، وماجد أبو شرار، وحسن سلامة، وغسان كنفاني، وناجي العلي، وعبد الرحيم محمود، ويحيى عياش، وعبد العزيز الرنتيسي، والشيخ أحمد ياسين، وكمال ناصر، وكمال عدوان وغيرهم.. وقائمة طويلة من أبطال الثورة الفلسطينية ممن حملوا أمانة النضال وشرف المواجهة بروح ثورية وفدائية لا نظير لها.

ولكن هذا النوع من النضال والتصدي والتحدي القائم على التفوق العلمي لا تزال تفاصيله وأبطاله وفرسانه طي الكتمان.. مع أنه يحمل دلالات ثورية ونضالية تمتزج فيها البطولة والشجاعة بالتفوق العلمي والإبداع العقلي والتكنولوجيا.

وهذه الجبهة التي قادتها اللجنة العلمية وعلى رأسها عدنان سمارة كانت موضع اهتمام ورعاية أبو عمار وأبو جهاد لأنها تشكل نظرة علمية مستقبلية تؤمن بالإنسان الفلسطيني القادر على التحدي والمواجهة.

وربما لو أتيحت له الظروف لكان رائدا في هذا المجال، كما كان رائدا في الدفاع عن الحق العربي عندما حمل أمانة مواجهة المد الصهيوني وناب عن الأمة العربية كلها في درء هذا الإخطبوط ودفع أبناء شعبنا كل فواتير هذه الهجمة الصهيونية التي تسعى لتجعل "الأزرق- الأبيض" يرفرف من النيل إلى الفرات.

إن الإمعان في حياة عدنان سمارة وكشف أوراق ملفه النضالي يبين بوضوح الجانب الحقيقي من روعة ونقاء وعظمة حركة فتح سنوات المد الناصري، وما تلاه من مواقف وجبهات وانطلاقات جعلت عبد الناصر يقول: "إن الثورة الفلسطينية أعظم ظاهرة نضالية في تاريخ الأمة العربية".

وما قام به فرسان البحث العلمي ومهندسو الأسلحة والتخطيط بتوجيه من عرفات وأبو جهاد شاهد حي على أصالة الفكر الثوري في منظمة التحرير وعلى ما لدى قادتها من مخزون نضالي وإبداعي وريادي وتطوير وسائل القتال ووضعها في يد المحاربين الفلسطينيين ليكونوا قادرين على التصدي للعدو الصهيوني وقهره. وما صمودهم ثمانية وثمانين يوما في حرب بيروت إلا شاهد على كفاءة الجندي الفلسطيني المحارب.

التحرر من عقدة الخواجة

إن أهم ما في قادة الثورة الفلسطينية هو أنهم يحسنون قراءة التاريخ، ويتفهمون الواقع، فهم لا يؤمنون بان اليهود عباقرة وقوة وجيش لا يهزم، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم طاقات علمية وقدرات عسكرية تضعهم في طليعة صفوف الجيوش المعاصرة.

يؤمن أبو عمار إيمانا قاطعا بأننا نمتلك من الطاقات والقدرات ما يجعلنا ندا للعدو كما يؤمن بان قوة الحق قادرة على أن تهزم حق القوة. وهذه الثقة بالنفس وفي أبناء فلسطين هي التي جعلت القيادة تسعى إلى تجميع النابغين في الهندسة والعلوم والتكنولوجيا وفي طليعتهم الصديق عدنان سمارة ليدرسوا ويؤسسوا ويقيموا المؤتمرات العلمية والقواعد العلمية، والدراسات التطبيقية المبتكرة، القادرة على إمداد المقاتل الفلسطيني بما يحتاجه من سلاح وعدة وعتاد قد لا يكون متاحا للخصم الذي يسرق العلماء ويتسول الطاقات الإبداعية العلمية في ألمانيا وروسيا وغيرها من دول العالم.

نحن أبناء فلسطين في اللجنة العلمية استطعنا أن نكون ندا، فقد أنتجت العقول الفلسطينية السلاح والعلم بكفاءة وتفوق.

من نصف اجبيل كان المنطلق

ولد عدنان نايف عبد الرحيم سمارة يوم 1941/9/15 في قرية نصف اجبيل- نابلس، والتحق في سنوات صباه الباكر بمدرسة بيت أمرين الابتدائية، ومن ثم درس المرحلة الإعدادية في مدرسة برقة المتوسطة، وبعدها انتقل للدراسة في سبسطية.. أما المرحلة الثانوية فقد أمضاها في المدرسة الصلاحية في نابلس، وقد كانت إحدى أهم المدارس الثانوية في تلك المرحلة .

كان أولاً أو ثانياً .. لا تأتِ في المضمار الرابع

منذ سنوات صباه كان عدنان يتطلع إلى أن يكون من الأوائل، كانت ميوله علمية بالفطرة، وكان يخطط ليكون من أوائل الثانوية العامة حتى يحصل على منحة تمكنه من الالتحاق بالجامعة وذلك لكي يخفف عن كاهل والديه أعباء التعليم الجامعي المكلف في تلك الفترة.

وهنا يتطرق عدنان إلى الحديث عن والده فيقول: كان والدي فلاحا بسيطا، وكان قبل أحداث النكبة يعمل في مصفاة البترول في حيفا، فلما حدثت النكبة عام 1948 عاد إلى العمل في الزراعة.. وقد توفي والدي وأنا ما أزال طالبا في الصف الرابع الابتدائي.. رحل وعمره أربعة وخمسون عاما.. تاركا ثلاثة إخوة وخمس بنات، ولم أذق مرارة اليتم لأن والدتي كانت بألف رجل، امرأة فلاحة مناضلة تحملت أعباء الأسرة بشجاعة ومسؤولية ولا عجب فإن والدها كان أحد شيوخ المنطقة الحاج عبد الحميد الحمود وكان أحد زعماء وادي الشعير في منطقة نابلس.

ومنذ صغري يقول المهندس عدنان سمارة كنت أعشق التفوق، لم يكن ترتيبي في أثناء دراستي في كل المراحل المختلفة يتعدى الثالث، كانت عيني منذ سنوات الصبا الباكر على دراسة الهندسة ضمن بعثة دراسية لا تنازل عنها، وبعد حصولي على شهادة المترك من المدرسة الصلاحية تقدمت في العام الدراسي سنة 1960- 1961 للحصول على الثانوية المصرية في القسم العلمي وحصلت على معدل 82 في المائة.

كان الحصول على منحة دراسية لدراسة الهندسة مجرد أمل أو حلم لا سبيل إلى تحقيقه. ولكني لم أتنازل عن طموحي وأمل حياتي في دراسة الهندسة فتوجهت إلى سوريا، ولكن عام 1961 شهد الانقلاب الشهير ضد الوحدة، وأصبحت أجواء الدراسة غير ملائمة لي خاصة وأننا كنا نحن جيل عبد الناصر في حالة صدمة وذهول وانكسار.. لأن عبد الناصر كان هو البطل القومي الذي أيقظ فينا كل معاني العزة والتحدي

والشموخ، وكان انكساره قد أصاب مشاعرنا بالإحباط والحزن والشجن.. ومن هنا حولت ناظري من دمشق إلى ميونخ، من سوريا إلى ألمانيا.

صداقة العمر أنقذت سفينتي

كنت أرتبط بصداقة حميمة مع شاب من بلدي يدعى سامي خضر، كان أكبر مني سنا وكان يعيش في ألمانيا وكنا نتبادل الرسائل وكان دائما يحاول أن يدفعني إلى السفر إلى ألمانيا، والالتحاق به، ولم يكن يدخر جهدا في إغرائي بالسفر، لان فرص العمل والدراسات متاحة في ألمانيا بصورة جيدة.

وقد استجبت لنداء صديقي، وضربت صفحا عن محاولات أخي الذي كان يريدني أن أسافر للدراسة في بريطانيا، حيث كان يريد أن يسلحني بالعلم وأن يراني أهم رجل في الدنيا وكان يثق بي ثقة مطلقة ولكن المنية وافته قبل أن أكمل دراستي وقد وفقني الله وكان له ما يريد.

ومن أسباب سفري إلى ألمانيا أيضا رغبتي في اختصار نفقات تكاليف الدراسة وحتى لا أحمّل أخي عبئا فوق طاقته. وعندما التحقت بكلية الهندسة في جامعة ميونخ تفرغت للدراسة بكل جد واجتهاد وصممت على أن أتفوق في الدراسة لأحصل على منحة دراسية وخاصة أن أخي وهو معيلي قد توفي وأنا في منتصف الطريق، وهكذا رحت أدرس ليل نهار دون تذمر أو راحة وضاعفت جهودي عندما علمت أن نسبة النجاح في كلية الهندسة بالنسبة لأبناء العالم الثالث لا تزيد على 6 في المائة.

وبعد مضي سنتين من دراستي استطعت أن أحصل على منحة تفوق وامتياز ويومها قابلني أستاذي المشرف وحاول أن يثنيني عن نشاطي السياسي وقال لي إن السياسة ستفسد مستقبلك وستفقد المنحة نتيجة اهتماماتك السياسية وهذه تجربتي معكم.

ولكني رفضت هذا المنطق وواصلت تفوقي الدراسي وأثبت للأستاذ المشرف أني لا أتنازل عن مبدئي ولا أفرط في أمانة النضال من أجل وطني وفي نفس الوقت بقيت محافظا على تفوقي ومنحتي حتى تخرجت. وهذه الجدية في التعامل اكتسبتها من خلال تعاملي مع الشعب الألماني المعروف بجديته وصرامته وحبه للعمل وعشقه للتفوق والذكاء والابتكار والصبر والمجالدة وهكذا عشقت الهندسة وتفوقت فيها.

واحد من الجيل الناصري

كان التحدي التالي الذي واجهته في ألمانيا هو مواجهة الدعاية الصهيونية القائمة على التزوير والخداع والاستفادة من العهد النازي لابتزاز الشعوب الأوروبية والشعب الألماني بصفة خاصة وكان ذلك على حساب القضية الفلسطينية والهوية العربية.

ولكن بوحي من الفكر الناصري والإيمان بمبادئ القومية العربية وبوحي من نقاء فتح وثوريتها ومبادئها كنت قادرا على أن أتصدى للدفاع عن الحق المقدس في فلسطين، واجهت أكاذيبهم بكل ما أستطيع ونتيجة لذلك دخلت (اتحاد الطلاب العرب)، واتحاد طلاب فلسطين وأصبحت في عام 1965 رئيسا لاتحاد طلاب فلسطين فرع ميونخ في ألمانيا كمرشح لحركة فتح في تلك الفترة. وهذا يذكرنا بالدكتور غازي حنانيا الذي كان رئيسا لنفس الفرع في فرنكفورت في ألمانيا، وفي حين كان حنانيا يدرس الطب كان سمارة يدرس الهندسة.

لجان البحث العلمي مع هاني الحسن

أستطيع أن أقول أن عام 1964 شهد تحولا جذريا في انتمائي الوطني لأني في تلك السنة التقيت بشاب رائع نظمني في فتح واسمه نهاد شبير، كما تعرفت في حينها إلى الأخ هاني الحسن اللذين من خلالهما التحقت بحركة فتح .

وأثمر تعاوننا بصورة فاعلة فقد شكلنا في أوروبا بل وفي كل دول العالم لجانا للبحث العلمي وأذكر أني كنت مسؤولا عن هذه اللجنة في ألمانيا وقد عقدنا أول مؤتمر للبحث العلمي وكان ذلك عام 1969 في دمشق الفيحاء حيث حضر هذا المؤتمر نخبة من العلماء العرب والفلسطينيين في كل أنحاء العالم حتى أوروبا وأمريكا...

وعملت بكل جهد وإخلاص في لجان البحث العلمي وفي العمل السياسي مع الأخ هاني الحسن وكوادر فتح القيادية في ألمانيا وأخص بالذكر: راغب عوايص، ويوسف زيدان، وعبد الجبار حمد، ونزار الترزي، وحققنا حضورا رائعا وإنجازات جعلت وجود فتح في ألمانيا ملموسا على المستوى الوطني والعلمي والنضالي.

وبعد حرب أيلول في عام 1970- 1971 طلبت مني حركة فتح أن أتفرغ للعمل العلمي، وهكذا استقلت من عملي في ألمانيا في شركة مسر شميت للطيران وتفرغت للعمل في جهاز يطلق عليه اللجنة العلمية ومقرها في بيروت، ولها فرع في الكويت، وآخر في دمشق، بل إن لها فروعا في جميع العواصم والدول التي تتواجد فيها حركة فتح وخاصة في أوروبا وأمريكا.

في عام 1974 أصبحت رئيسا لهذه المؤسسة وكان مسؤولي المباشر فيها الأخ أبو عمار، كما كنت أعمل بصورة مستمرة مع الأخ أبو جهاد وللإنصاف أقول إن أبو جهاد هو صاحب فكرة تأسيس اللجنة العلمية فقد كانت له اهتمامات كبيرة بالقضايا العلمية كما كان ذلك شأن أبو عمار أيضا.

غيض من فيض

حاز المهندس عدنان سمارة على ثقة حب كل من عمل معه، أو كل من عملوا معه. فهو متواضع، منكر لذاته، يتجلى بروح العالم الباحث، علمته الهندسة الوضوح والصراحة والصدق ولم تستطع مقومات السياسة وألاعيبها ومتاهاتها أن تطغى على روحه العلمية وهو الآن لواء متقاعد ولكن تاريخه حافل بالمناصب والمواقف التي تشرف أي إنسان.

- في عام 1988 في المؤتمر الخامس لفتح انتخب نائبا لأمين سر المجلس الثوري لحركة فتح وبقي في هذا الموقع إلى أن عقد المؤتمر السادس في بيت لحم.
- وهو عضو في المجلس الوطني.
- وعضو في الأمانة العامة لاتحاد المهندسين الفلسطينيين ومسؤول عن العلاقات الداخلية.
- وكان في فترة من الفترات رئيسا لاتحاد المهندسين العرب.
- وهو الآن رئيس مجلس أمناء جامعة القدس المفتوحة.
- كما عمل وكيلا لوزارة الصناعة والاقتصاد الوطني.
- وكان مسؤولا لمالية حركة فتح لمدة أربع سنوات.

- وكان مسؤولا عن العلاقات المدنية والاقتصادية في مكتب أبو عمار من 1990 حتى أوسلو.
- لكن أكثر ما يعتز به ويشعر أنه حقق فيه أعظم الإنجازات هو رئاسته للجنة العلمية.

اللجنة العلمية بين اليوم والأمس

ولا تزال اللجنة العلمية قائمة حتى اليوم، لكن خروج المنظمة من لبنان وسوريا أثر سلبا على فاعليتها ونشاطاتها، وهي موجودة الآن بصورة من الصور، في الوطن وفي اليمن ويرأسها الأخ المهندس سعادة سعادة، ولكن دورها ورسالتها مختلفة وذلك تبعا للمرحلة السياسية التي تعيشها القضية الفلسطينية.

وفي لهجة مليئة بالشجن يقول المهندس عدنان سمارة: لا يمكن أن أنسى أننا كنا جيلا من الرواد، فليس هناك شيء مستحيل، وليس هناك ما يمكن أن نعجز عنه في ملفات وفعاليات الثورة والمقاومة.

أخي عدنان..

لعلك تعلم أن أرشيف الثورة الفلسطينية حافل بالبطولات والأعلام والمقاتلين والقادة، ولعلك تعلم أن المحن والنكبات والمآسي التي عصفت بالشعب الفلسطيني فجرت طاقات وقدرات وعبقريات.. في كل مجالات الحياة.

ولكني انبهرت إلى درجة شديدة من الدهشة والانفعال بمسيرة حياتك، ومشوارك النضالي الذي هو مزيج من عبقرية المهندس وفروسية المحارب.

وتأملت سطورك القليلة.. وأنت تحارب ببسالة لتظل محافظا على منحتك الدراسية وأنت في جامعة ميونخ.. فلما حاول أستاذك المشرف أن يثنيك عن الاشتغال بالسياسة

قلت له: لن يضيع مستقبلي إذا تبنيت قضايا وطني، ولن أخسر المنحة إذا استغرقني العمل النضالي، لكني سأضيع، وتضيع المنحة ويضيع وطني وشرفي وكياني إذا أنا وزنت الأمور بموازين المكسب والخسارة.

* * *

أخي عدنان..

لا زلت أذكر أني كنت ألتقيك في العراق.. عند أبو عمار.. وفي بيروت عند أبو جهاد وماجد أبو شرار.. ومع نخبة الشباب الذين أتوا من كل العالم للالتحاق بالثورة الفلسطينية. كنت أعرف أنك من الصفوة.. ولم أكن على علم بالمخطط العلمي الريادي المميز الذي تتبناه، وهو المؤسسة الرائدة التي حملت أمانتها بكفاءة وعبقرية.

إن ما يشد الجيل الصاعد من الشباب الفلسطيني والعربي في السجون وفي الجامعات ويثيره أن يعرف أنه يوجد رجال أمثالك أعطوا كل شيء لديهم للوطن، والتزموا بقضايا أمتهم وشعبهم ووضعوا كل علمهم وعبقريتهم من أجل فلسطين .

إنك قدوة بالنجاح والإرادة والطموح للأجيال الشابة حيث تشق طريقك في الشوك، وبقيت ملتزما بالقضية الفلسطينية والقومية العربية، وتشربت النضال من جبل النار من مدينة نابلس المناضلة حيث عشت أجواء حركات التحرر التي كانت تسود في المنطقة ابتداء بمبادئ جمال عبد الناصر والأحزاب اليسارية التي كانت تسود المنطقة وأنت لا زلت طالبا في المدرسة الصلاحية في نابلس. وقد تأثرت بالأجواء السياسية والنضالية والفكرية للسياسيين والمثقفين في المدينة وأنت لا تزال في المرحلة الثانوية. وهذه

الأجواء في نابلس صنعت منك هذه الشخصية المميزة. وكانت أجواء ألمانيا وجامعة ميونخ والأجواء السياسية واليسارية والمثقفين الألمان والحوارات السياسية التي تدور في المنطقة في ألمانيا بين الطلاب العرب والطلاب الألمان كل هذه كونت العناصر السياسية والفكرية التي صقلت شخصيتك أنت وزملاءك الفلسطينيين في ألمانيا.

ولا زلت أذكر تلك الفترة من تاريخ مدينة نابلس جبل النار حيث كنت اسكن فيها. فقد تفجرت فيها منابع القومية العربية وتياراتها القوية الجارفة في عهد سليمان النابلسي، وكانت التظاهرات تخرج من المدرسة الصلاحية في نابلس التي كنت أأحد طلابها. وكانت نابلس بالفعل مركز إشعاع وثورة بما تموج به من حركات نضالية وأحزاب سياسية وقومية ومبادرات حزبية وعربية تتغذى بالفكر الناصري والبعثي والمد القومي الوحدوي الجارف بالإضافة الى الحزب الشيوعي.

جامعة القدس المعهد والدلالة والرسالة

لقد أسعدني أن تكون رئيسا لمجلس أمناء جامعة القدس المفتوحة، ولا شك أنك الرجل المناسب في المكان المناسب ولكن دعنا نستذكر أن فكرة الجامعة وهي فكرة بناءة وفكرة قومية قد ولدت على يد الدكتور وليد القمحاوي.

ويقول الدكتور إبراهيم الصوص في معرض ذكره لتاريخ نشأة وظهور الجامعة المفتوحة إنه عندما افتتح مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في اليونسكو كان أول عمل قام به أنه تلقى زيارة من الدكتور وليد القمحاوي الذي عرض عليه فكرة الجامعة المفتوحة. وكان الدكتور القمحاوي متحمسا أشد الحماس لهذه الفكرة وكان يبدو أنه درسها من كل جوانبها ما جعل إبراهيم الصوص ييسر له الاجتماع مع أحمد مختار امبو مدير عام اليونسكو حيث عرض عليه الفكرة وتكررت الاجتماعات والمناقشات أكثر من خمس عشرة مرة.

ويقول الدكتور إبراهيم الصوص: إن المشروع هو أحد أفكار الدكتور وليد القمحاوي بل إنه كان متحمسا لهذه المشروع ويرى فيه إنجازا علميا ووطنيا وقوميا يستحق كل عناء ودراسة.

ونتيجة لمجهود الدكتور القمحاوي وإبراهيم الصوص فقد كانت منظمة اليونسكو في باريس وعلى رأسها أحمد مختار امبو أول من اعترف بفكرة جامعة القدس المفتوحة.

وللحق أقول فإن أحمد مختار امبو شخصية عالمية ويعد من أهم الشخصيات العالمية المفكرة، وقد ارتبط بصداقة عظيمة مع الرئيس الراحل أبو عمار، وقد امتدت رئاسته لمنظمة اليونسكو اكسر من عشر سنوات ما يدل على تاريخ وعصامية هذا القائد المفكر العالمي الذي تولى رئاسة السنغال في عقد الستينيات.

وفي ما يذكره الدكتور إبراهيم الصوص ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في اليونسكو أنه قد نظم وشارك في عقد أكثر من خمسة عشر اجتماعا في مؤسسة اليونسكو في باريس بمشاركة احمد مختار امبو الرئيس العام لمنظمة اليونسكو. وكان المشروع من وحي أفكاره البناءة حتى يصح أن نقول إنها إحدى ثمار جهده وعبقريته خاصة وإني قد عاصرت هذه المرحلة وكثيرا ما حضرت اجتماعات ومناقشات وتخطيط الدكتور وليد القمحاوي، بل إني عاصرت تلك المرحلة التي كان يعرض فيها هذه الفكرة على منظمة

اليونسكو لتدعم هذا المشروع كأول جامعة في الشرق الأوسط تتبنى فكرة التعليم الجامعي المفتوح الذي يعد كسرا للحواجز التقليدية التي تحول دون الدراسة الجامعية، فقد أتاحت الجامعة الدراسة لربات البيوت متخطية عقبة الشهادة الثانوية التوجيهي.

كان فكر الدكتور القمحاوي رائدا غير تقليدي، وكان حلمه أن تكون الجامعة مفتوحة بالفعل لكل من يطلب العلم الفقير والغني، الرجل والمرأة، ربة البيت والعامل والفلاح.

ولا شك أن هذا التفكير الثوري المتقدم لم يطبق بعد رحيل الدكتور القمحاوي عن الجامعة.

التاريخ للذي يكتبه

وقد أوعز فاروق القدومي (أبو اللطف) أن يسلم المشروع للدكتور إبراهيم أبو اللغد الذي أكمل المشروع، لأنه كان يوجد خلاف بين أبو عمار والدكتور وليد قمحاوي. ولكن لا ننسى مجهود الدكتور القمحاوي. وبصفتك رئيس مجلس أمناء الجامعة أطلب منك ألا تنسى ريادة الدكتور وليد القمحاوي المناضل الذي لولاه لما كان هذا المشروع. فعندما عاد من أوسلو إذ كان مبعدا من قبل السلطات الإسرائيلية؛ كان حلمه أن يكمل مشروع الجامعة المفتوحة ولكن لم يستجب له أبو عمار بسبب الخلافات. وهكذا رحل وفي قلبه غصة.

إن مسؤوليتك أن تعرف الأجيال الصاعدة من المؤسس الحقيقي لهذه الجامعة، ورغم أنه تربطني صداقة متينة بالدكتور أبو اللغد تماما كما تربطني صداقة وثيقة بالدكتور القمحاوي. ولكن إحقاقا للحق فإني أستذكر مقوله تشرشل: "التاريخ للذي يكتبه". علما أن الدكتور سلام فياض في كلمة له في جامعة الخليل المفتوحة ذكر هذه الحقيقة، ولكن جاء ذكر الدكتور القمحاوي بعد ذكر أبو اللغد، غير أن الحقيقة أن الريادة للدكتور القمحاوي. وهذه اللفتة تذكر للدكتور سلام فياض الذي نشهد بذاكرته وأسلوبه المنصف في تتبع القادة الرواد في المجتمع الفلسطيني وخاصة في مجال الجامعات والتعليم.

أخي عدنان..

إنني أعرف أن ما استطعت أن أنتزعه منك لا يعدو أن يكون مقدمات سريعة وتفاصيل موجزة أو عناوين دالة، وأنك في رحلتك الشاقة مع الحياة ومشوارك مع رفاق الدرب، ومسيرتك ونضالك في بغداد وبيروت وميونخ وصنعاء والكويت ودمشق ما يستحق أن تكرس له صفحات وصفحات، وكتب ودراسات، ولكن "ما لا يدرك كله لا يترك جُله".

وما يعجبني في روحك الوثابة.. كسرك لحواجز السنين فلا زالت تتألق في جوانحك الرغبة في العمل والعطاء وإثراء الأجيال الصاعدة.. بالعلم والخبرة والنضال ومواقف الرجال الذين لا تزعزعم الخطوب.

وها أنت تثري جامعة القدس.. بحضورك وعلمك وإخلاصك، ورؤاك الفكرية وسماحة نفسك ونبل مواقفك.. ها أنت دائما الرجل المناسب في المكان المناسب ومن موقعك كرئيس لمجلس أمناء جامعة القدس المفتوحة تقدم النصح والرؤى والفكر.. وتداوم.. كل ما وجدت إلى ذلك سبيلا.. متبرعا، متطوعا بحب وإخلاص كعالم ووطني وكإنسان.. تتلمذ في مدرسة "فتح" فأخذت عهدا على نفسك أن تكون جامعة القدس المفتوحة جامعة فلسطين.. ملاذا للعلم والدراسة والتفوق والنبوغ.. لكل من ترفضهم الجامعات الأخرى.

وهذا التساهل الذي يفتح أبواب الجامعة للجميع يغلق كل أبواب التسيب والسطحية والاتجار والعمولة والتساهل في المناهج والمفردات.. بل إني أشهد أن جامعتكم.. جامعة فلسطين.. جامعة فتح.. من أشد الجامعات صرامة في المناهج والدراسات.. والمفردات واختيار الأساتذة.. وأنظمة الامتحانات، فهي مفتوحة للعلم والوطنية والنبوغ المسيج بالجدية والروح العلمية وأمانة الرسالة.. وتلك القيم الخلاقة.. هي ما يجسد خير تجسيد.. نابغة الهندسة.. والإدارة والثورة القائد المعلم المحارب المهندس "أبو باسم" عدنان سمارة.

وأخيرا فإني أتمنى على المهندس عدنان سمارة رئيس مجلس الامناء أن يبادر إلى تكريم الدكتور وليد القمحاوي باعتباره المؤسس الرائد الذي أقام هذا الصرح العلمي العظيم واستحق بذلك أن يكون من الآباء المؤسسين دون أن ننتقص من حق ومجهود الدكتور إبراهيم أبو اللغد الذي كان شريكا فاعلا في هذا المشروع.

(2012/6/22)